

مِنْ مَوَاضِيعِ سُورَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ
«٣»

الْعَوَاضِعُ مِنَ الْفَتَنِ

فِي سُورَةِ الْكَهْفِ

تأليف
عبد الحميد محمود طه هاز

دار المنارة
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت

دار الفاء
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق

الطبعة الأولى

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم

للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص. ب. : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

دار المنارة

للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص. ب. : ١١٣/٦٥٠١

الْعَوَّا صِرَ الْفَاتِي

في سورة الكهف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد خاتم النبيين وأشرف المرسلين، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن عصرنا هذا من أشد العصور فتناً، وأكثرها محناً، يتعرض المسلمون فيه لشتى أنواع البلاء من فتنٍ ومحنٍ، وإن من أوجب الواجبات أن نبحث عن طريق السلامة في ديننا، وسبيل العافية في حياتنا. ولا بد لنا لنعرف طريق السلامة من الرجوع إلى كتاب ربنا، وإلى سنة نبينا محمد ﷺ، فهما كهف السلامة - والعافية في الدين والدنيا، وسبيل السعادة في الآخرة.

وهذا الكتاب يبين طريق السلامة وسبيل العافية من خلال سورة كريمة من سور القرآن الكريم، هي سورة الكهف، على ضوء الصحيح الثابت من سنة رسول الله ﷺ، وهو الكتاب الثالث في هذه السلسلة التي تبحث في موضوعات سور القرآن الكريم.

وقد جاء الكتاب في خمسة فصول: خصّصت الفصل الأول لمقدمتين، الأولى: مقدمة عن الفتن: تعريفها، والمراد منها في الكتاب، وأسبابها، وسبل الوقاية منها.

والثانية: مقدمة عن سورة الكهف، وفضلها، وموضوعها، وصلته
بأسباب السلامة والعصمة من الفتن.

وخصصت الفصول الأربعة التالية للقصص الأربع الرئيسية في سورة
الكهف.

وإنني لأسأل الله العلي القدير أن يحفظني من الفتن، ويجنبني الزلل
والخطأ، وأن يثبتني على دينه، ويديم عليّ نعمة العافية، وأن يعفو عني
ويسترني بستره الجميل.

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفقير إلى الله تعالى

عبد المحمّد محمّد طه ماز

نزّيل نجران

نجران في ١١ / جمادى الثانية / ١٤٠٦ هـ

الفصل الأول

مُكِدِّمة في الفِتن

- تعريف الفتن .
- منشأ الفتن .
- أسباب السلامة من الفتن .
- باب الفتن .
- خبير الفتن يتحدث .
- هلاك المسلمين بالفتن فيما بينهم .
- فتنة الدجال .

١ - تعريف الفتن

الفتن: جمع فتنة، ولها في اللغة عدة معانٍ، أهمها:

الابتلاء والاختبار:

أصل هذا المعنى مأخوذ من قولك: فتنت الفضة والذهب، إذا أذبتهما بالنار لتمييز الرديء من الجيد، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَحْصِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾^(١) أي لا يتلون ولا يختبرون. وقال سبحانه أيضاً: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾^(٢) أي نحن ابتلاء واختبار، وقال أيضاً: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾^(٣) أي يختبرون.

ولما كانت الأموال والأولاد اختباراً للإنسان وامتحاناً؛ قال الله سبحانه فيهم: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾^(٤).

وتأتي الفتنة أيضاً بمعنى قريب من معنى الابتلاء والاختبار، وهو معنى: الإحراق، وجاء في هذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾^(٥).

الإعجاب بالشيء:

وتأتي الفتنة بمعنى الإعجاب بالشيء، ولهذا يقال: فتنة أي جعل فيه

(١) الآيتان ١ - ٢ سورة العنكبوت.

(٢) الآية ١٠٢ البقرة.

(٣) الآية ١٢٦ التوبة.

(٤) الآية ٢٨ الأنفال.

(٥) الآية ١٣ الذاريات.

فتنة، وأفتته: أوصل الفتنة إليه، وفتن الرجل بالمرأة: إذا أعجبته وأحبها، وأهل الحجاز يقولون: فتنته المرأة، وأهل نجد يقولون: أفتنته، وجاء قوله تعالى بهذا المعنى: ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين﴾^(١) أي لا تظهرهم علينا فيعجبوا ويظنوا أنهم خير منا.

المميلة عن الحق:

وتأتي الفتنة بمعنى المميلة عن الحق، والفاتن: المضلُّ عن الحق، كما في قوله تعالى: ﴿ما أنتم عليه بفاتنين﴾^(٢) أي مضللين عن الحق، وقوله تعالى: ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا﴾^(٣) أي يميلونك ويزيلونك، فكل ما يؤدي إلى الميل عن الحق من كفر وضلال وإثم يسمَّى فتنة، وجاء بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ومنهم من يقول ائذن لي، ولا تفتني، ألا في الفتنة سقطوا﴾^(٤) أي لا... تؤثمني، وردَّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾ أي في الإثم والضلal، وقوله تعالى: ﴿والفتنة أشد من القتل﴾^(٥) أي الكفر والإثم والضلal.

الاختلاف والاقتيال:

وتأتي الفتنة أيضاً بمعنى الاختلاف والاقتيال الذي يقع بين الناس، وبهذا المعنى جاء قول رسول الله ﷺ: «إني أرى الفتن خلال بيوتكم»^(٦) أي القتل والحروب والاختلاف.

تلك هي أهم المعاني اللغوية للفتن التي ذكرها اللغوي المشهور ابن منظور في كتابه لسان العرب، ولا يخفى على المتأمل فيها أن بينها صلة،

(١) الآية ٨٥ يونس.

(٢) الآية ١٦٢ الصافات.

(٣) الآية ٧٣ الإسراء.

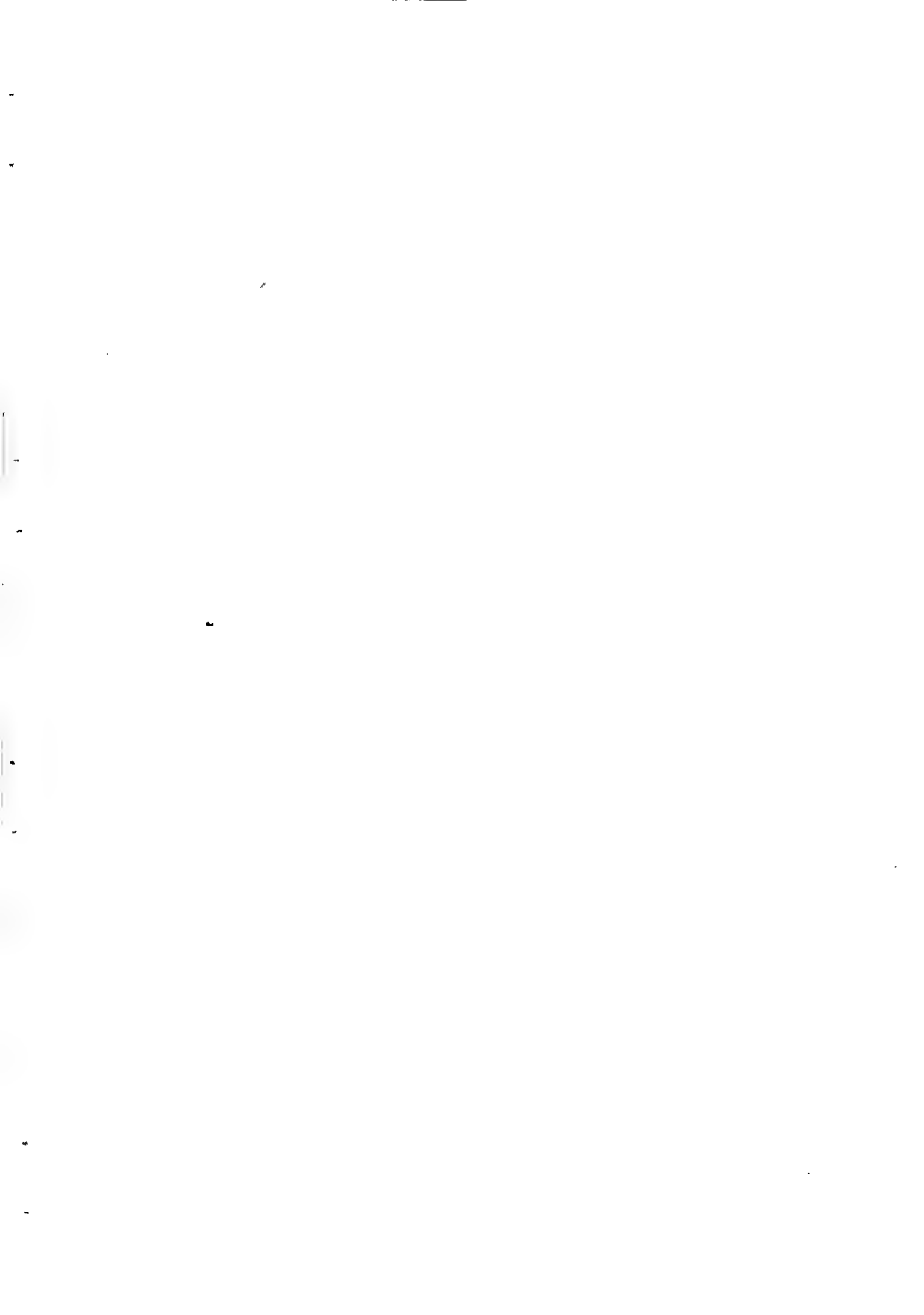
(٤) الآية ٤٩ التوبة.

(٥) الآية ١٩١ البقرة.

(٦) أخرجه مسلم من حديث أسامة بلفظ: أشرف النبي ﷺ على أطم - حصن - من أطام المدينة ثم قال: «هل ترون ما أرى؟ إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر».

فالإعجاب بالشيء يؤدي إلى الميل عن الحق، وهذا يوقع الناس في الفتنة التي هي بمعنى الاختلاف والاقتتال، أو يوقعهم في الفتنة التي هي بمعنى الكفر والإثم والضلال، والإعجاب بالشيء نتيجة اختبار الله لنا وابتلائه بما خلق لنا في هذه الحياة من أسباب الابتلاء والاختبار.

ونحن لا نقصد بالفتن تلك التي تكون من الله سبحانه على وجه الابتلاء والاختبار، وإنما نعني بالفتن ما يكون للعبد كسب فيها واختيار، وهي التي تميله عن الحق وتضلُّه عنه، وتوقعه بالإثم والضلال والكفر، وتسبب الاختلاف والاقتتال بين الناس.



٢ - منشأ الفتن

ومنشأ هذه الفتن يكون من التغيير والتبديل والانحراف عن دين الله سبحانه، وقد بَوَّب الإمام البخاري في أول كتاب الفتن في صحيحه باباً فقال: باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾^(١) وما كان النبي ﷺ يحذّر من الفتن.

حدثنا علي بن عبدالله، حدثنا مبشر بن السري، حدثنا نافع مولى ابن عمر، عن ابن أبي مُليكة قال: قالت أسماء عن النبي ﷺ قال: «أنا على حوضي أنتظر من يرد علي، فيؤخذ بناس من دوني، أقول: أمّتي، فيقال: لا تدري مشوا على القهقري» قال ابن أبي مليكة: اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن.

حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عَوانة، عن مغيرة، عن أبي وائل، قال: قال عبدالله: قال النبي ﷺ: «أنا فرطكم»^(٢) على الحوض، ليرفعن إليّ رجالاً منكم حتى إذا أهويتُ لأناولهم اختلجوا»^(٣) دوني، فأقول: أي رب أصحابي، فيقال: لا تدري ما أحدثوا بعدك.

حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن أبي حازم،

(١) الآية ٢٥ الأنفال.

(٢) أي سابقكم.

(٣) أبعدوا عني.

قال: سمعت سهل بن سعد يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «أنا فرطكم على الحوض، من ورد شرب منه، ومن شرب منه لم يظماً بعده أبداً، ليردَّن عليَّ أقوام أعرفهم ويعرفونني، ثم يُحال بيني وبينهم». قال أبو حازم: فسمعتي النعمان بن أبي عياش وأنا أحدثهم هذا، فقال: هكذا سمعت سهلاً؟ فقلت: نعم، قال: وأنا أشهد على أبي سعيد الخدري لسمعته يزيد فيه: قال: «إنهم مني فيقال: إنك لا تدري ما بدَّلوا بعدك فأقول: سحقاً لمن بدَّل بعدي».

قال ابن حجر رحمه الله: قوله: (وما كان النبي ﷺ يحذّر من الفتن) يشير إلى ما تضمنه حديث الباب من الوعيد على التبديل والإحداث، فإن الفتن غالباً تنشأ عن ذلك... وحاصل ما حمل عليه حال المذكورين أنهم كانوا ممن ارتد عن الإسلام، فلا إشكال في تبرّي النبي ﷺ منهم وإبعادهم، وإن كانوا ممن لم يرتد لكن أحدث معصية كبيرة من أعمال البدن أو بدعة من اعتقاد القلب، فقد أجاب بعضهم بأنه يحتمل أن يكون أعرض عنهم ولم يشفع لهم اتباعاً لأمر الله فيهم حتى يعاقبهم على جنائتهم، ولا مانع من دخولهم في عموم شفاعته لأهل الكبائر من أمته، فيخرجون عند إخراج الموحدين من النار. والله أعلم^(١).

وأخرج ابن أبي شيبة عن حذيفة رضي الله عنه قال: لا تضرك الفتنة ما عرفت دينك، إنما الفتنة إذا اشتبه عليك الحق والباطل.

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري.

٣ - أسباب السلامة من الفتن

إذا كان التغيير والتبديل في دين الله والانحراف عن صراطه المستقيم منشأ الفتن، فإن أسباب السلامة منها تكون بالتمسك بدين الله سبحانه الذي شرعه لنا دون تغيير أو تبديل، وبالاستقامة عليه، وذلك بالمداومة على تطبيقه والسير على منهجه، وهذا يستدعي منا عدة أمور:

أولها: العلم بالإسلام عقيدة وتشريعاً وأحكاماً: حتى نكون على بصيرة ودراية، بحيث نميز بين ما هو من الدين حقيقة وبين ما ليس منه من البدع والضلالات وأسباب الزيغ والانحراف.

وقد تكفل الله سبحانه بحفظ دينه وإبقائه في الأرض حجة على الناس، بعد أن ختم النبوة والرسالة ببعثة خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد ﷺ، فحفظ أصوله ومصادره الأساسية، وذلك بحفظ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ولم يتأت هذا الحفظ لأي دين سماوي آخر غير الإسلام، ولهذا فإن التمسك بالكتاب والسنة تمسك بدين الإسلام وأكبر عاصم يعصم الإنسان من الزيغ والانحراف والابتداع، وبالتالي من مباشرة الفتن أو أسبابها.

ولهذا كان ﷺ يوصي أمته من بعده بأن يتمسكوا بالكتاب والسنة، ففي الموطأ عن الإمام مالك رحمه الله قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «تركتم فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكن بهما: كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ» وفي سنن أبي داود والترمذي عن العرباض بن سارية رضي الله

عنه قال: صَلَّى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا بوجهه، فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال رجل: يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «أوصيكم بتقوى الله تعالى والسمع والطاعة وإن كان عبداً حبشياً، فإنه من يمشي بعدي فسيري اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة».

والعلم لا يكون إلا بالتعلم على يد معلم عليم بالكتاب والسنة، خبير بكيفية استنباط الأحكام منهما، مؤتمن على دين الله، يخشى الله ويتقيه، قال تعالى: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾^(١).

وما أرسل الله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلا معلمين ومرشدين وهادين، قال تعالى: ﴿إذهب إلى فرعون إنه طغى. فقل هل لك إلى أن تزكى. وأهديك إلى ربك فتحشى﴾^(٢)، وقال أيضاً: ﴿ولكل قوم هاد﴾^(٣) أي دليل يدلهم ويرشدهم ويهديهم إلى دين الله وشرعه.

ولهذا فإن التفقه في دين الله على يد فقيه بصير بأحكام الكتاب والسنة من أهم الضرورات وأعظم سبيل للوصول إلى الخيرات، والعصمة من الفتن والمنكرات، قال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(٤).

إن الرجوع إلى الكتاب والسنة لمعرفة الأحكام دون دراية وخبرة باستنباط الأحكام، ومن غير اعتماد على أصول وضوابط وقواعد تحدد طريقة استنباط الأحكام يؤدي إلى الوقوع في التعارض والخطأ في دين الله خبط عشواء، كما تؤدي في كثير من الأحيان، إلى التشكك والانسلاخ عن الدين والمروق منه.

(١) الآية ٧ الأنبياء.

(٢) الآيات ١٥ - ١٧ النازعات.

(٣) الآية ٧ الرعد.

(٤) صحيح مسلم.

والجهل بالدين من أهم أسباب الفتن، وكلما ازداد الناس جهلاً بدينهم ازدادت الفتن بينهم وكثرت أسبابها، فمن علامات الساعة التي ذكرت في عدة مواضع من أحاديث النبي ﷺ قلة العلم، وانتشار الجهل، وكثرة الفتن، ومن هذه الأحاديث ما رواه الإمام البخاري في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن بين يدي الساعة أياماً يرفع فيها العلم، وينزل فيها الجهل، ويكثر فيها الهرج»^(١) فقد جمع النبي ﷺ في حديث واحد بين كثرة الفتن بكثرة القتل وبين انتشار الجهل وقلة العلم في دين الله وشرعه.

* * *

وثانيها: الحرص على سنة رسول الله ﷺ، والعمل بها، وإحياء ما اندرس منها: فالرسول ﷺ أمان من الفتن، ولهذا كان عصره عليه الصلاة والسلام أنضر العصور وأزكاها وأنقاهما، كما أنه كان أبعداها عن الفتن، تم الدين به ﷺ، وكملت به نعمة الله سبحانه على خلقه، وكان موته عليه الصلاة والسلام أول النقص، وحدثت فتنة الردة نتيجة ذلك، ولكن وجود الصحابة رضي الله عنهم وحرصهم الشديد على التمسك بسنته ﷺ أغلق باب الفتنة وقمع الردة ورد دعاة الفرقة والاختلاف إلى جحورهم خاسئين، وهذا يفسر لنا سر حرص خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق رضي الله عنه على تطبيق السنة تطبيقاً كاملاً، وإصراره الشديد على تنفيذ وصية رسول الله ﷺ بأن يبعث جيش أسامة إلى بلاد الشام مع شدة حاجتهم إليه في المدينة المنورة، بعد أن ذر قرن الفتنة في عامة البلاد من حولها، وقد خالفه عامة الصحابة وأشاروا عليه بتأخير بعث جيش أسامة، ولكنه رضي الله عنه أصر على تنفيذ وصية رسول الله ﷺ، وكان في هذا الخير للإسلام والمسلمين، فقد تمكن رضي الله عنه من قمع فتنة الردة، وأعاد للدين شبابه وللإسلام قوته وجماله ببركة تمسكه بسنته ﷺ وحرصه الشديد على تنفيذ وصيته.

(١) الهرج: القتل.

وكان موت الصحابة رضي الله عنهم ورحيلهم عن الدنيا وخلو الأرض منهم ثلثة كبيرة في الإسلام، لأنهم أكثر الناس فقهاً في دين الله ومعرفة بسنة رسول الله ﷺ وتمسكاً بها، وكان عصرهم خير العصور بشهادة رسول الله ﷺ عندما قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»^(١).

فوجود الصحابة رضي الله عنهم أمان للأمة المسلمة من الفتن، كما أن وجوده ﷺ أمان لأصحابه من الفتن، وقد جاء هذا في حديث نبوي صحيح عن أبي بردة عن أبيه قال: صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلّي معه العشاء، فخرج علينا فقال: «ما زلتم ههنا؟» قلنا: يا رسول الله صلينا معك المغرب، ثم قلنا: نجلس حتى نصلّي معك العشاء، قال: «أحسنتم أو أصبتم» قال: فرفع رأسه إلى السماء وكان كثيراً ما يرفع رأسه إلى السماء فقال: «النجوم أمانةٌ للسماء فإذا ذهبَت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمانةٌ لأصحابي فإذا ذهبَت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمانةٌ لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون».

وقد أخرج هذا الحديث الإمام مسلم في صحيحه وبوب له باباً مستقلاً فقال: باب بيان أن بقاء النبي ﷺ أمان لأصحابه وبقاء أصحابه أمان للأمة.

قال العلماء: الأمانة والأمن والأمان بمعنى واحد، ومعنى الحديث: أن النجوم ما دامت باقية فالسماء باقية، فإذا انكدرت النجوم وتناثرت يوم القيامة انشقت السماء وذهبت، والنبي ﷺ أمان لأصحابه من الفتن والاختلاف والارتداد، والصحابة أمان للأمة من الفتن والاختلاف وظهور البدع والحوادث، وقد وقع كل ذلك كما أخبر ﷺ^(٢).

وجاء التحذير من مخالفة سنته ﷺ وأن ذلك يؤدي إلى وقوع الفتن في

(١) متفق عليه من حديث عمران بن حصين وابن مسعود رضي الله عنهما.

(٢) انظر هامش صحيح مسلم ص ٩٦٦.

قوله تعالى: ﴿فليحذر الذين يُخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذابٌ أليمٌ﴾^(١).

فما من فتنة أصابت المسلمين بعده عليه الصلاة والسلام إلا بسبب مخالفتهم لأمر من أوامره، أو تركهم لسنة من سنته، ولهذا كان للمتمسك بالسنة عند انتشار الفساد في الأمة أجر مائة شهيد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المتمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر مائة شهيد»^(٢) كما أن العمل على إحياء سنة من سنته ﷺ من أعظم العبادات وأرفع القربات، لأن إحياء السنة يدرأ عن الأمة سبباً من أسباب الفتن، ويرفع عنها بعض أنواع البلاء.

كما أن إحياء سنته عليه الصلاة والسلام دليل على محبته، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بني إن قدرت أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غشٌّ لأحد فافعل، يا بني وذلك من سنتي، ومن أحيا سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة» وفي رواية بلفظ: «فقد أحياني، ومن أحياني كان معي في الجنة»^(٣).

قال ابن شهاب الزهري رحمه الله: (بلغنا عن رجال من أهل العلم قالوا: الاعتصام بالسنة نجاة)^(٤). وقال عبدالله بن منازل: لم يضيع أحد فريضة من الفرائض إلا ابتلاه الله بتضييع السنن، ولم يُبَلِّ أحد بتضييع السنن إلا أوشك أن يُبْتَلَى بالبدع.

* * *

وثالثها: اللجوء إلى الله سبحانه بالإكثار من عبادته وذكره ودعائه:
فيجب على المسلم عندما يواجه الفتن أن يلجأ إلى الله سبحانه، فيقبل بعد

(١) الآية ٦٣ النور.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط.

(٣) أخرجه الترمذي وحسنه.

(٤) شرح الشفا للقاري.

أداء الفرائض على نوافل العبادات ويكثر من الصلاة في جوف الليل، فإن فيها استدراراً لفضل الله ورحمته وسبباً لحفظه من الفتن والنجاة منها، فعن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزعاً يقول: «سبحان الله ماذا أنزل الله من الخزائن وماذا أنزل من الفتن؟! من يوقظ صواحب الحجرات - يريد أزواجه - لكي يصلين، رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة»^(١).

قال ابن حجر: وفي الحديث النذب إلى الدعاء والتضرع عند نزول الفتنة ولا سيما في الليل لرجاء وقت الإجابة لتكشف، أو يسلم الداعي ومن دعا له^(٢). وقال ﷺ أيضاً: «إن الله تعالى قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته ولئن استعاذني لأعيذنه...»^(٣).

فنوافل العبادات ترفع الإنسان إلى مقام محبة الله سبحانه، ورعايته، فإذا سأل الله أعطاه وإن استعاذ به أعاده.

وثواب العبادة أيام الفتن كبير وعظيم يعدل ثواب هجرة إلى النبي ﷺ، قال ﷺ: «العبادة في الهرج كهجرة إلي»^(٤) والهرج: الفتنة التي تؤدي إلى كثرة القتل، وسبب كثرة ثواب العبادة أيام الفتنة أن أكثر الناس يغفلون عن العبادة ويشتغلون عنها بما ابتلوا به من الفتن، ولا ينصرف لها إلا القليل من الأفراد.

(١) صحيح البخاري.

(٢) فتح الباري.

(٣) الحديث في صحيح البخاري كتاب التواضع.

(٤) صحيح مسلم.

٤ - باب الفتن

وشاءت حكمة الله أن يكون للفتن التي حدثت بين المسلمين ولا زالت قائمة بينهم في ازدياد باب، كان في أول الأمر مغلقاً حائلاً بين المسلمين وبين الفتن، وقد بدأ النقص والخلل يظهر بوضوح في جسم الأمة المسلمة بفتح هذا الباب، وفتحه كان بموت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه غيلة، وقد أخبر النبي ﷺ في بعض الأحاديث الشريفة الصحيحة أن وجود عمر رضي الله عنه يرفع عن الأمة المسلمة الفتن، وأن موته يفتح على الأمة باب الفتن، فهو رضي الله عنه الباب الذي كان يمنع الفتن أن تدخل إلى مجتمع الأمة المسلمة.

ولعل السبب في ذلك ما كان يتصف به رضي الله عنه من صلابة في دين الله، وحرص شديد على سنة رسول الله ﷺ، وتبصر بالأمور، وتقدير للعواقب، فهو الذي أشار على رسول الله ﷺ في عدد من القضايا ونزل الوحي موافقاً لرأيه، وهو الذي قال عنه ﷺ: «قد كان يكون في الأمم قبلكم مُحدثون، فإن يكن في أمتي منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم»^(١). وهو الذي شهد له النبي ﷺ بكمال الدين، فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائم رأيت الناس يعرضون وعليهم قمص، منها ما يبلغ الثَّدْي، ومنها ما يبلغ دون ذلك، ومر عمر بن الخطاب وعليه قميص

(١) أخرجه مسلم في صحيحه وقال بعده: قال ابن وهب: تفسير محدثون: مُلْهُمون.

يجره»، قالوا: ماذا أوّلت ذلك يا رسول الله؟ قال «الدين»^(١).

ولقد ألبسه الله ثوب مهابة ووقار بسبب كمال دينه وصلابته في الحق وشدته فيه، ودفع عنه بهذا مكر الماكرين وكيد الكائدين، حتى الشيطان كان يهاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ويتعد عن طريقه، أخبر بذلك ﷺ بقوله مخاطباً لعمر: «والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك»^(٢). وقد أثر عنه رضي الله عنه أنه كان يقول: (لست بالخَبِّ ولا الخُبُّ يخدعني). والخَبُّ: الماكر المحتال.

وشاءت حكمة الله وإرادته أيضاً أن يكسر باب الفتن على الأمة الإسلامية كسراً، مما جعله لا يغلق بعد ذلك، لأن عمر بن الخطاب قُتل غيلةً بخنجر أبي لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة.

(١) صحيح مسلم.

(٢) أخرجه مسلم وفي الحديث قصة.

٥ - خبير الفتن يتحدث

حدّث بهذا أمين سر رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان^(١) الذي كان رسول الله ﷺ يأتمنه على أسرارهِ، فكان يقول: والله إني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة فيما بيني وبين الساعة، وما بي إلا أن يكون رسول الله ﷺ أسراً إليّ في ذلك شيئاً لم يحدثه غيري، ولكن رسول الله ﷺ قال وهو يحدث مجلساً أنا فيه عن الفتن «منهن ثلاث لا يكذن يَدْرَنَ شيئاً، ومنهن فتن كريات الصيف منها صغار ومنها كبار» قال حذيفة: فذهب أولئك الرهط كلهم غيري^(٢).

تحدث رضي الله عنه عن كسر باب الفتنة فقال: كنا عند عمر فقال: أيكم يحفظ حديث رسول الله ﷺ في الفتنة كما قال؟ فقلت: أنا، قال: إنك لجريء، وكيف قال؟ قلت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «فتنة الرجل في أهله وماله ونفسه وولده وجاره، يكفرها الصيام والصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» فقال عمر: ليس هذا أريد، إنما أريد التي تموج كموج البحر، فقلت: مالك ولها يا أمير المؤمنين إن بينك وبينها باباً مغلقاً. قال: أفيكسر الباب أم يفتح؟ قلت: لا بل يكسر، قال: ذلك أحرى أن لا يُغلق أبداً. فقلنا لحذيفة: هل كان عمر يعلم من الباب؟ قال: نعم كما

(١) هو حذيفة بن اليمان: كان من كبار أصحاب رسول الله ﷺ، وهو معروف في الصحابة بصاحب سر رسول الله ﷺ، مات سنة ٣٦ هـ. كما في الاستيعاب لابن عبد البر.

(٢) انظر كتاب الفتن في صحيح مسلم.

يعلم أن دون غدٍ الليلة، إني حدثته حديثاً ليس بالأغاليط، قال شقيق الذي روى الحديث عن حذيفة: فهَبْنَا أن نسأل حذيفة مَن الباب؟ فقلنا لمسروق: سلّه، فسأله فقال: عمر^(١).

(١) متفق عليه واللفظ لمسلم.

٦ - هلاك المسلمين بالفتن فيما بينهم

قدّر الله سبحانه وتعالى أن يكون بأس المسلمين بينهم، وأن يتلى بعضهم ببعض أكثر من ابتلائهم بتسليط أعدائهم عليهم، أخبر بهذا النبي ﷺ في عدد من الأحاديث ذكر بعضها الإمام مسلم في صحيحه في باب مستقل بعنوان: باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض:

من هذه الأحاديث ما رواه ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى - جمع - لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض^(١)، وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة عامة - بقحط يعمهم - ، وألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم - أي جماعتهم وأصلهم - وإن ربي قال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وألا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً».

وقال تعالى: ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو

(١) قوله: «الكنزين الأحمر والأبيض» المراد به كنزا كسرى وقصر، والأحمر والأبيض الذهب والفضة.

من تحت أرجلكم، أو يلبسكم شيعاً، ويذيق بعضكم بأس بعض، انظر كيف نُصِرَفُ الآياتِ لعلهم يفقهون﴿^(١)﴾.

قال البخاري رحمه الله في صحيحه: يلبسكم من الالتباس، يلبسوا: يخلطوا، شيعاً: فرقاً، ثم روى بسنده عن جابر بن عبد الله قال: لما نزلت الآية ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ قال رسول الله ﷺ: «أعوذ بوجهك»؛ ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ قال: «أعوذ بوجهك»، ﴿أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض﴾ قال رسول الله ﷺ: «هذه أهون - أو أيسر».

وأخرج أحمد والترمذي - وحسنه - عن سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ في هذه الآية ﴿قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً...﴾ فقال النبي ﷺ: «أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد» وقد جاء تأويلها كما أخبر ﷺ، ولا يزال بأس الأمة المسلمة بينها قائماً منذ أن كسر باب الفتنة بقتل عمر رضي الله عنه.

(١) الآية ٦٥ الأنعام.

٧ - فتنة الدجال

وهي من أعظم الفتن التي تكون بين يدي الساعة، والدجال رجل مشوه الخلقة، ناقص البنية، يدّعي لنفسه صفة الألوهية، ويغتر به كثير من الناس ويصدقونه ويتابعونه، رغم العور الظاهر في عينيه الذي يدل على عجزه ونقصه، ويتنافى مع ما يدعيه من صفات الألوهية والربوبية، لكنه يخدع الناس ببعض خوارق العادات التي تُجرى على يديه. وبسبب كثرة الذين يضلّون به ويفتنون بدعوته كانت فتنته من أعظم الفتن التي تمرّ على البشرية في تاريخها، حتى جاء في الحديث الشريف: «ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة فتنة أعظم من الدجال»^(١).

وكثيراً ما حذر النبي ﷺ من الافتتان به، كقوله عليه الصلاة والسلام: «ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، وأن بين عينيه مكتوب كافر»^(٢).

وأدلة الحدوث التي تتنافى مع دعوى الربوبية والألوهية كثيرة وظاهرة في الدجال، وإنما اقتصر النبي ﷺ منها بقوله: «إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور» لكون العور أثراً محسوساً يدركه العالم والعامي الذي لا يهتدي إلى

(١) رواه الحاكم.

(٢) صحيح البخاري.

الأدلة العقلية، فإذا ادّعى الربوبية وهو ناقص الخلقة والإله يتعالى عن النقص علم أنه كاذب^(١).

وقد رآه النبي ﷺ في منامه، ورؤيا الأنبياء وحي وحق، فوصفه بقوله: «بينما أنا نائم أطوف بالكعبة فإذا رجل آدم سبط الشعر ينطف رأسه ماء، قلت: من هذا؟ قالوا: ابن مريم، ثم ذهبت ألثفت فإذا رجل جسيم أحمر جعد الرأس أعور العين كأن عينه عنبة طافية، قالوا: هذا الدجال، أقرب الناس به شبهاً ابن قطن، رجل من خزاعة»^(٢).

وأول ما يظهر الدجال من جهة المشرق من أصبهان حيث يصدقه يهود أصبهان ويتابعونه، ثم يتشر ذكره في الأرض ويسير فيها حتى يغلب على كل المدن إلا مكة والمدينة، فإن الله سبحانه يحميها من شره، حتى ينزل عيسى عليه السلام من السماء فيقتله في باب لُدٍّ من مدن فلسطين، وهذا يدل على أن ظهوره من علامات الساعة الكبرى لأن نزول عيسى عليه السلام من أشراط الساعة الكبرى.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال: «ما تذاكرون؟» قالوا: نذكر الساعة، قال: «إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات» فذكر: الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم.

وروى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس من بلد إلا سيطاه الدجال إلا مكة والمدينة، ما من نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، فينزل السبخة، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج إليه كل كافر ومنافق».

(١) انظر فتح الباري.

(٢) صحيح البخاري.

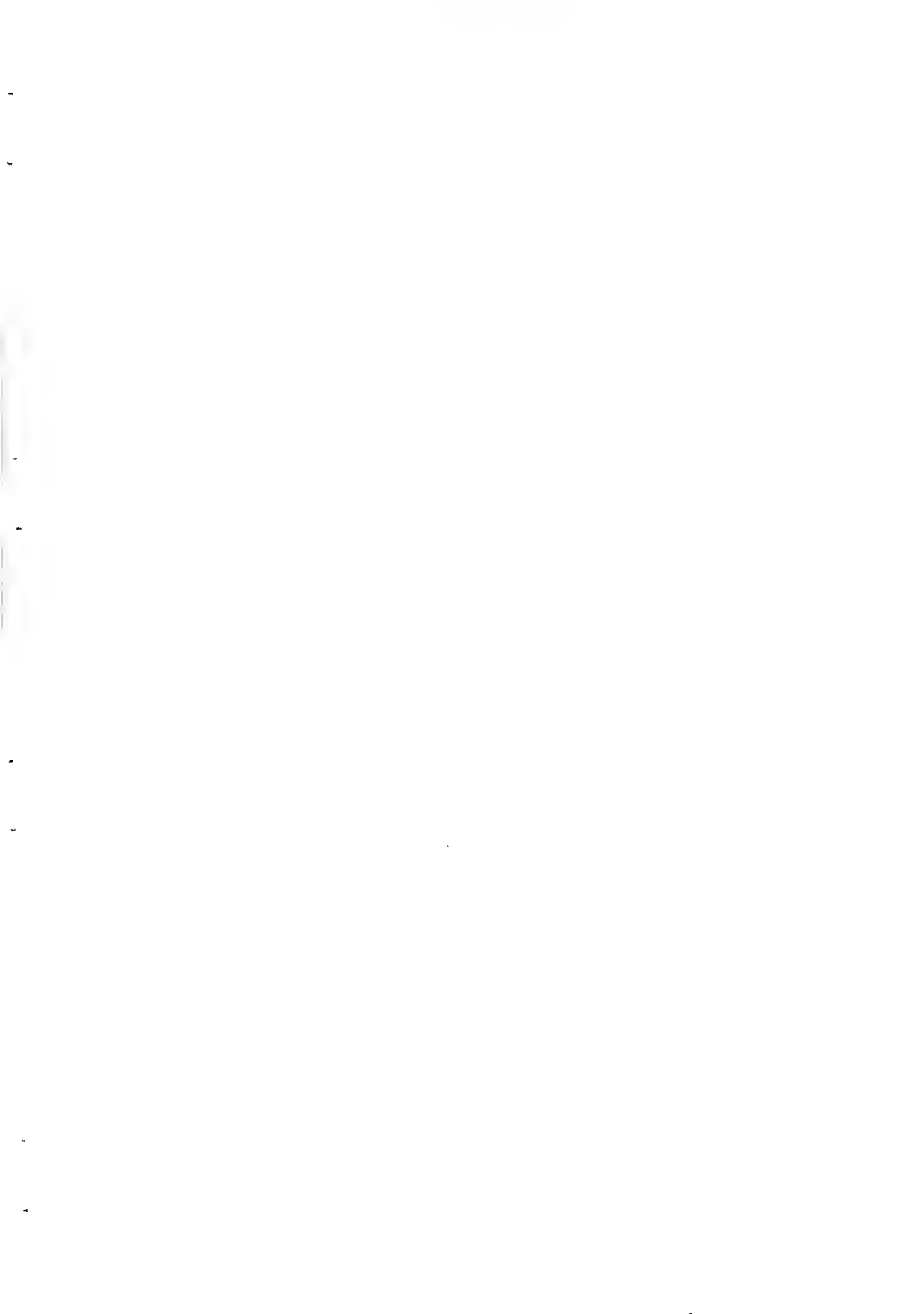
وروى مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالة الخضراء».

ويجب حمل هذه النصوص على الحقيقة دون المجاز، فما دامت الحقيقة ممكنة في ذاتها فإنَّ المصير إليها متعين، كما قال الشيخ محمد الحامد رحمه الله: وما ضلَّ من ضلَّ من الباطنية وأضرابهم إلاَّ بتحويل النصوص إلى معاني لا صلة لها بها، وإلغاء المرادات القطعية منها، فكان الزيغ وكان الضلال^(١).

(١) انظر كتاب ردود على أباطيل للشيخ محمد الحامد رحمه الله.

سُورَةُ الْكَهْفِ

نُفَاتِلُهَا ، مَوْضُوعُهَا ، سَبَبُ نَزُولِهَا



١ - فضائل سورة الكهف

ويقودنا الحديث عن فتنة الدجال إلى بيان فضائل سورة الكهف، إذ جاء في حديث النبي ﷺ عن الدجال قوله: «فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف»^(١).

فمن فضائل سورة الكهف أن فيها وقاية وعصمة من فتنة الدجال، وقد تأكد هذا في عدد من الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة، وبُوب الإمام مسلم في صحيحه باباً مستقلاً لهذا فقال:

باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي.

ثم روى بسنده عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدَّجَال». وروى هذا الحديث أيضاً الإمام أحمد وأصحاب السنن وابن جِبَّان، وجاء في بعض رواياته بلفظ «عُصِمَ من فتنة الدجال»، كما رواه الإمام مسلم بسند آخر بلفظ: «من آخر الكهف». ورواية النسائي: «من قرأ عشر آيات من الكهف». كما أخرج النسائي عن ثوبان عن رسول الله ﷺ «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف فإنه عصمة له من الدجال».

ولا تعارض بين الروايات، فمن قرأ من أولها أو آخرها أو من أي مكان فيها حفظه الله سبحانه وتعالى من فتنة الدجال.

(١) الحديث كاملاً في صحيح مسلم من طريق النَّوَّاس بن سَمْعَانَ رضي الله عنه.

ومن فضائل سورة الكهف أيضاً أن الله سبحانه ينور قلب قارئها، فقد أخرج ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعاً: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء، يضيء له إلى يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين».

وروى غير واحد عن أبي سعيد الخدري: (من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق). وكان الحسن بن علي رضي الله عنهما يقرؤها كل ليلة.

وأخرج ابن مردويه عن عبدالله بن مُغَفَّل مرفوعاً «البيت الذي تقرأ به سورة الكهف لا يدخله شيطان تلك الليلة».

وذهب غير واحد من الأئمة إلى سنية قراءتها يوم الجمعة وليلتها، وقالوا يندب تكرار قراءتها^(١).

وذكر العلامة ابن عابدين قراءة سورة الكهف في جملة ما اختص به يوم الجمعة. وقال ابن قدامة في كتابه المغني: يستحب قراءة الكهف يوم الجمعة.

(١) انظر تفسير روح المعاني للألوسي.

٢ - موضوع سورة الكهف

إذا تدبرنا الآيات الأولى في سورة الكهف ظهر لنا الموضوع الأساسي للسورة، فالآيات تقرر أن الحمد لله وحده الذي أنزل أعظم نعمة أنعمها على خلقه، وهي نعمة القرآن الكريم عندما أنزله على النبي ﷺ، فهو سبحانه المستحق للحمد لأنه أنزل القرآن الكريم الذي يهدي العباد إلى ما فيه كمالهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، وليس في القرآن الكريم شيء من العوج، لا في ألفاظه ومبانيه، ولا في أخباره ومعانيه، أخباره كلها صدق وحق، وأحكامه عدل، سالم عن جميع العيوب والخلل في ألفاظه ومعانيه ﴿أفلا يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾^(١).

وبعد أن قررت الآيات الأولى في سورة الكهف استحقاق الله سبحانه للحمد، ونفت عن القرآن الكريم النقص والخلل ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾^(٢) أثبتت للقرآن الكريم الاستقامة، وذلك في قوله تعالى ﴿قيماً﴾ أو أخبرت أنه قيم بمصالح الخلق الدينية والدنيوية، وهذا يعني أن القرآن الكريم كامل بنفسه ومكمل لمن يتمسك به ويسير على هديه ومنهجه. وأنزل الله سبحانه القرآن أيضاً ﴿لينذر بأساً شديداً من لدنه﴾ أي لينذر الذين كفروا عذاباً شديداً من عند الله، وحذف المفعول الأول لأن القرينة تدل عليه، وحتى يقتصر على بيان حكمة إنزال القرآن

(١) الآية ٨٢ النساء.

(٢) الآية ١ الكهف.

الكريم، ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾^(١) وهو الجنة، ﴿مَا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾^(٢) بلا انقطاع.

ثم كرر إنذار الذين قالوا اتخذ الله ولداً، وخصَّهم بالذكر استعظاماً لكفرهم وقبح قولهم الذي لم يكن ناشئاً عن علم وتفكر ونظر، وشأنهم في هذا شأن آبائهم الذين قالوا مثل قولهم - ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾^(٣).

وكان ﷺ يحزن عندما يرى إعراض المشركين عن الإيمان بالله وعبادته، وهم يتمسكون بكفرهم وشركهم، ولهذا التفتت الآيات الكريمة إلى النبي ﷺ تقول له: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنَّ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾^(٤) أي لا تهلك نفسك حزناً بسبب إعراضهم عن الإيمان، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾.

الحياة في الدنيا ابتلاء واختبار

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(٥)، جعل الله كل ما على الأرض زينة للأرض، فما من شيء خلقه الله إلا وفيه حكمة وله دور في زينة الأرض، وقد تخفى هذه الحكمة عنا لقصور عقولنا عن إدراكها، والحكمة الكبرى من جعل ما على الأرض زينة لها هي الابتلاء والاختبار للمكلفين من المخلوقات، وقد بين الله تبارك وتعالى هذا المعنى في عدة مواضع من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾^(٦).

(١) الآية ٢ الكهف.

(٢) الآية ٣ الكهف.

(٣) الآية ٥ الكهف.

(٤) الآية ٦ الكهف.

(٥) الآية ٧ الكهف.

(٦) الآيتان ١ - ٢ من سورة الملك.

وبعد أن يتم الابتلاء والاختبار، يجعل الله كل ما على الأرض من زينة تراباً لا نبات فيه ﴿وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً﴾^(١)، فشأن ما على الأرض من أسباب الزينة كشأن النبات، لا تدوم خضرته ولا تبقى نضرتة، وما أكثر ما ذكر الله هذا المعنى في آيات التنزيل الحكيم، منها قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء، فاختلط به نبات الأرض، فأصبح هشيماً تذروه الرياح، وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾^(١).

هذا هو الموضوع الأساسي الذي تدور في فلكه آيات سورة الكهف، وفي استفتاح السورة بذكر فضل الله سبحانه على العباد بإنزال القرآن الكريم بيان لطريق النجاح والفوز في الاختبار والابتلاء، فالمعلم الماهر الحكيم هو الذي يبين لتلاميذه العلوم التي سيختبرون بها كي يجتهدوا ويجتهدوا فيها ليكونوا من الناجحين والفائزين. ومن رحمته سبحانه وتعالى بخلقه وعظيم حكمته أنه يبين لهم أولاً طريق السلامة والنجاح قبل أن يمتحنهم ويختبرهم، وهذا من فضله العظيم سبحانه على الناس، وصف لهم الدواء قبل أن يبين الداء.

فالحياة كلها ابتلاء واختبار، وليست الدنيا دار نعيم، وكل ما على الأرض من زينة في هذه الدنيا فتنة للإنسان في حياته، وكلما كان تعلقه بهذه الزينة كبيراً، كانت فتنة فيها أعظم وأكبر ﴿المالُ والبنونَ زينةُ الحياة الدنيا، والباقيات الصالحاتُ خيرٌ عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾^(٢)، وقال في موضع آخر: ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنةٌ وأن الله عنده أجرٌ عظيمٌ﴾^(٣).

كهف السلامة

وطريق السلامة والنجاح في الكتاب الكريم المنزل الكامل في نفسه والمكمل لغيره، وفي سنة النبي ﷺ الذي أنزل الله عليه الكتاب، والذي كاد

(١) الآية ٨ الكهف.

(٢) الآية ٤٦ الكهف.

(٣) الآية ٢٨ الأنفال.

أن يهلك نفسه أسفاً وحرصاً على نجاحنا في الاختبار وسلامتنا من الفتن .

إن حرص النبي ﷺ على سلامتنا ونجاحنا يُلزمنا بوجوب التمسك بستته، فالخطر كبير والامتحان عظيم، ولهذا كان أسفه ﷺ شديداً وكبيراً على أولئك المعرضين عن الكتاب والسنة، المفتونين بالزينة الباطلة الزائلة، وما أكثرها، وما أشد خطرها!! ولن نجد في غير الكتاب والسنة السلامة والنجاة، فهما كهف السلامة من أخطار الفتن المحدقة بنا .

وكما كان كهف الجبل سبباً لسلامة أصحاب الكهف من كيد الكافرين ومكرهم، فالكتاب والسنة كهف السلامة والأمان لكل إنسان من فتن الحياة الدنيا، وهما سبيل السعادة في الدنيا والآخرة ﴿وَأْتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ، وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِداً﴾^(١) أي ملجأ ومأوى .

وكما كان رَدْمُ ذي القرنين سبباً لرد المفسدين وحماية الناس من شر أهل الشر والفساد، فإن الكتاب والسنة سبب لحماية المتمسكين بهما من الفتن في الحياة الدنيا، وسيأتي معنا أن أيَّ خرق يحدث في السدّ يمكن المفسدين من الفساد والشر بين العباد، وكذلك فإن أي خرق لأحكام الكتاب والسنة ومجاوزة حدودهما يؤدي إلى التعرض للفتن والوقوع في الشر، ويعطي المفسدين في الأرض فرصة للفساد والإفساد .

والجدير بالذكر أن سورة الكهف جاء ترتيبها في المصحف بعد سورة الإسراء التي تحدثت بعض آياتها عن بني إسرائيل ودورهم الكبير في نشر الفساد في الأرض .

ففي سورة الكهف بيان لأسباب السلامة من فتن الحياة الدنيا، ولهذا سن النبي ﷺ قراءتها كل يوم جمعة، وهو أفضل أيام الأسبوع عند المسلمين، وأكثرهم يريح نفسه في يوم الجمعة من عناء العمل الدنيوي، فقراءة سورة الكهف فيه مناسبة طيبة لتخلية النفس والقلب عن صداد الغفلة

(١) الآية ٢٧ الكهف .

عن الله سبحانه بسبب شدة الاهتمام بالدنيا ومشاغليها وهمومها ومشكلاتها، وفي قراءة سورة الكهف أيضاً تنوير القلب والنفس بنور التلاوة وهدى النبوة، وتحسينهما بالمعاني الطيبة الكريمة التي ركزت آيات السورة عليها.

وما دام الإنسان في هذه الحياة الدنيا فهو معرض للابتلاء والافتتان في كل لحظة من لحظات حياته، والفتن معروضة عليه بأشكال مختلفة وأنماط متعددة تارة بعد تارة ولحظة بعد لحظة كما جاء في الحديث النبوي الشريف: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأى قلب أشربها نُكت فيه نكتة سوداء، وأى قلب أنكرها نُكت فيه نكتة بيضاء، حتى يصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مرباداً كالكوز مُجْحِيّاً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه»^(١) فما دامت الفتن تعرض دائماً على الإنسان في حياته الدنيا، فعليه أن يداوم على قراءة سورة الكهف متديراً آياتها ممعناً النظر في معانيها كي ينور الله سبحانه قلبه، فيكون أبيض مثل الصفا وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء، وإلا صار قلبه بسبب تأثير الفتن عليه أسود مرباداً كالكوز مجحياً، أي منكوساً لا خير فيه، لأنه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه.

لقد تضمنت السورة ذكر أهم أسباب الفتن في الحياة الدنيا، وبيّنت موقف المؤمن منها، وشرعت له أسباب السلامة والنجاة بأسلوب القصة، فكانت في موضوعها موافقة لاسمها كهف السلامة والأمان.

عرضت سورة الكهف عدّة قصص استغرقت معظم آياتها تثبيتاً لما ذكرته في آياتها الأولى، وتمكيناً لموضوعها الأساسي في نفوس قارئها، وعقبت بعد كل قصة بتعقيب يؤكد هذا المعنى ويقوّيه، ففي أولها عرضت قصة أصحاب الكهف، ثم ثنت بقصة صاحب الجنتين، ثم ذكرت قصة آدم

(١) رواه مسلم من حديث حذيفة.

مع إبليس باختصار، ثم قصة موسى مع الرجل الصالح. وقبل أن تختتم آيات
السورة عرضت قصة ذي القرنين، ولكل قصة من هذه القصص اتصال وثيق
بموضوعها الأساسي كما سيأتي معنا إن شاء الله تعالى.

٣ - سبب نزول السورة

وقد كان سبب نزول سورة الكهف ابتلاء واختباراً لرسول الله ﷺ من قبل أحبار المدينة، ليكشفوا حقيقة أمره ويعرفوا صحة نبوته. روى ابن إسحاق في سبب نزول هذه السورة الكريمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال: بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء.

فخرجوا حتى أتيا المدينة، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره وبعض قوله، وقالوا: إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإلا فرجل متقول فتروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟ فإنهم قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالوا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها، فجاءوا رسول الله ﷺ فسألوه عما أمروهم به، فقال لهم

رسول الله ﷺ: «أخبركم غداً عما سألتكم عنه» ولم يستثن - أي لم يقل إن شاء الله - فانصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له في ذلك وحياً ولا يأتيه جبريل عليه السلام، حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من خبر الفتية، والرجل الطواف، وقول الله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١).

(١) الآية ٨٥ الإسراء. انظر تفسير ابن كثير.

الفصل الثاني

أصحاب الكهف

- | | |
|-----------------------|-----------------------|
| من آيات الله سبحانه . | مصادر القصة . |
| الحارس الأمين . | فوائد وحكم . |
| البعث من النوم . | الآيات البينات . |
| محاورة بعد النوم . | صفات أصحاب الكهف . |
| النقود الفضية . | ربط الله على قلوبهم . |
| إظهار الحقيقة . | الخروج إلى الكهف . |
| مسجد على الكهف . | منطق المغرورين . |
| تأديب وتعليم . | في داخل الكهف . |
| تعقيب . | مدة نومهم في الكهف . |
| | الحكم لله وحده . |

القصة الأولى قصة أصحاب الكهف

مصادر القصة

القرآن الكريم هو المصدر الوحيد لقصة أصحاب الكهف لعدة أسباب منها:

أولاً: قول الله سبحانه للنبي ﷺ في سورة الكهف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾^(١) وإن في قوله سبحانه: ﴿بِالْحَقِّ﴾ إشارة إلى أن هناك من يقص نأ أصحاب الكهف بغير حق، ولهذا لو تتبعنا ما ذكره كثير من المفسرين من أخبار أصحاب الكهف المأخوذة عن بني إسرائيل، لوجدنا فيها تعارضاً وتناقضاً، مما يجعلها أخباراً ساقطة ليس لها أية قيمة علمية.

ثانياً: ذكر الله سبحانه في سياق قصة أصحاب الكهف صورة من صور اختلاف رواة قصتهم، تلك هي صورة اختلافهم في تحديد عدد أصحاب الكهف، فقال عز وجل: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامُهُمْ كَلْبُهُمْ، قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ، مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، فَلَا تُمَارِفِهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا، وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾^(٢).

وهذا يدل على أن جدلاً كبيراً قام حول عدد أصحاب الكهف، وأن

(١) الآية ١٣ الكهف.

(٢) الآية ٢٢ الكهف.

الأقويل والروايات فيهم كثيرة، ولا فائدة من هذا الجدل، فمهما كان عددهم فإن أمرهم موكول إلى الله سبحانه، وعلمهم عند الله العليم الخبير وعند الفئة القليلة من الناس الذين شهدوا أمرهم عند حدوثه، والعبرة في قصتهم لا في عددهم، ولهذا نرى القرآن الكريم يوجه النبي ﷺ حتى لا يجادل في عددهم، ولا يستفتي أحداً من المتجادلين فيهم صيانةً لطاقة الإنسان العقلية أن تهدر في غير فائدة، واكتفاءً بما ذكره القرآن الكريم من أخبارهم وقصتهم، وقد عودنا الله سبحانه في كتابه الكريم ألا يذكر من القصة إلا ما فيه فائدة وعبرة وموعظة.

وقوله تعالى: ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ بعد ذكر قولين من أقوال المتجادلين في عددهم يدل على أنهما قولان غير صحيحين، لأن معنى: رجماً بالغيب يقولون قولاً بلا علم، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه فإنه لا يصيبه، والرجم القول بالظن، وبعد أن ذكرت الآية الكريمة القول الثالث فيهم: ﴿ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم﴾ سكنت عنه ولم تعلق عليه بشيء، فدل هذا على أنه القول الصحيح في عددهم.

فوائد وحكم

في هذه الآية الكريمة فوائد كثيرة وحكم جليلة:

منها أنها تعلمنا الأدب مع الله سبحانه، بأن نرد العلم إليه سبحانه، فهو العليم الخبير ﴿قل ربي أعلم بعدتهم﴾ فعلينا أن نرد علم الأشياء إلى خالقها جلً وعلا وإن علمنا بها أدباً مع الله سبحانه.

ومنها أن المجادلة لإظهار الحق وإبطال الباطل ليست مكروهة ولا مذمومة، بل هي ممدوحة ومطلوبة إذا ترتب عليها إظهار الحق ودحض الباطل، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾^(١)، أما المجادلة المكروهة فهي التي تكون في أمور فيها شك وتردد

(١) الآية ٤٦ العنكبوت.

ولا يقصد منها سوى إظهار الجدل، وهي المرادة في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ والممارسة: المحاجة فيما فيه مرية، أي تردد وشك، والمعنى المراد في الآية: فلا تجادل في شأن أصحاب الكهف إلا جدالاً ظاهراً، بأن تقص عليهم ما في القرآن الكريم من غير تجهيل لهم ولا تعنيف.

ويعلمنا الله سبحانه في هذه الآية أيضاً أدباً من آداب السؤال في قوله: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ فالسؤال إما للاسترشاد، وهو جائز، وإما للتعنت وهو مكروه، وكلاهما غير لائق بمقامه ﷺ، فكأن الآية تقول للنبي ﷺ: لا تسأل أحداً منهم عن قصة أصحاب الكهف، فإن فيما أوحى إليك لمندوحة عن غيره، مع أنهم لا علم لهم بها، ولا تسألهم سؤال متعنت تريد فضح المسؤول وتزييف ما عنده، فإنه مخل بمكارم الأخلاق^(١).

أما السؤال للتعليم والإرشاد كما يسأل المعلم تلميذه عن مسألة ثم يذكرها له فلا مانع منه، وهو فن من فنون التعليم، وكثيراً ما كان النبي ﷺ يستعمله مع أصحابه.

الآيات البينات

إن قصة أصحاب الكهف - وإن استعظمها الناس وعجبوا منها - ليست شيئاً عجباً بالنسبة إلى قدرة الله سبحانه وعظيم صنعته وبديع حكمته، فإن خلق السموات والأرض، وتزيين السماء الدنيا بالنجوم، وجعل ما على الأرض زينة لها، وتحويلها بعد ذلك إلى صعيد جرز لا نبات فيه، آيات بينات أعظم وأعجب من آية الله في أصحاب الكهف، ولهذا قدم الله لقصة أصحاب الكهف بقوله قبلها: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾^(٢) وكلمة (أم) معناها: بل، وهي للإضراب والانتقال من كلام إلى كلام آخر له تعلق بما قبلها بواسطة المعنى، فقصة أصحاب الكهف لا عجب فيها بالنسبة إلى ما خلق الله سبحانه في السموات والأرض، فَخَلَقَ

(١) انظر تفسير البيضاوي وحاشية الشهاب عليه.

(٢) الآية ٩ الكهف.

السموات والأرض أعظم من خلق جميع الناس ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾، ولكن أكثر الناس لا يعلمون^(١)، وقال أيضاً: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمَ السَّمَاءُ، بِنَاهَا رَفَعَ سَمَكُهَا فَسَوَّاهَا﴾^(٢).

والكهف: النقب الواسع في الجبل، فإن لم يك واسعاً فهو غار، واختلف العلماء في الرقيم على أقوال منها: أنها اسم بلدة أصحاب الكهف، أو اسم الجبل الذي فيه الكهف، والأظهر أن الرقيم معناه المرقوم، فهو فعل بمعنى مفعول من قولك رقمت الكتاب إذا كتبت، ومنه قوله تعالى: ﴿كَتَابَ مَرْقُومٍ﴾^(٣)، فهو كتاب كتبت فيه أسماء أصحاب الكهف وأنسابهم وسبب خروجهم من بلدهم واختفائهم^(٤). والخطاب في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ للنبي ﷺ، وأريد به غيره لأنه عليه الصلاة والسلام كان يعرف من قدرة الله تعالى ما يجعله لا يتعاضم خبر أصحاب الكهف، والآية تؤكد سبب النزول الذي سبق ذكره^(٥).

صفات أصحاب الكهف

ذكر الله سبحانه وتعالى عدة صفات لأصحاب الكهف فقال: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا: رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، وَهَيِّءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾^(٦). فهم فتية جمع فتى، وهو من جموع القلة، ممّا يدل على قلة عددهم، والفتى: الطري من الشبان. وهذا يدل على أنهم كانوا شباباً في مقتبل أعمارهم.

وهم مؤمنون بالله سبحانه وحده، فقد وصفهم الله بالإيمان فقال:

(١) الآية ٥٧ غافر.

(٢) الآيتان ٢٧، ٢٨ النازعات.

(٣) الآية ٩ المطففين.

(٤) انظر تفسير أضواء البيان.

(٥) انظر تفسير روح المعاني.

(٦) الآية ١٠ الكهف.

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾^(١) فقد زادهم سبحانه هدى، وفهم من الآية الكريمة أن من آمن بربه وأطاعه زاده ربُّه هدى، لأن الطاعة سبب للمزيد من الهداية والرشاد.

ويبدو أن هؤلاء الفتية كانوا من أسر عريقة ذات جاه وثراء في بلدهم، فبعد أن خرجوا فراراً بدينهم افتقدتهم أهل البلد وبحثوا عنهم وطلبوهم، ولما يشؤا من وجودهم كتبوا أسماءهم، ورقموها في لوح، ووضعوه في مكان بارز في البلد، فلم يكن هؤلاء الفتية نكرات مجهولة، بل كانوا معروفين ومشهورين في مجتمعهم.

وكان لهم ثراء ومال، وقد حملوا بعض هذا المال معهم إلى الكهف، دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾^(٢) والورق: النقود الفضية.

وجود كلب معهم يدل على ثرائهم لأن الكلب يقتنى عادة للصيد أو للحراسة، وهما شأن أصحاب الجاه والثراء، وقد أضيف بالآية الكريمة إليهم ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾^(٣) فالكلب كلبهم وخاص بهم، وليس كما ذكرت بعض الروايات والحكايات أنه كلب راعٍ تبعهم وانضم إليهم.

رَبَطُ الله على قلوبهم

وقد تعرض هؤلاء الفتية لخطر كبير ووعيد شديد يصل إلى حد رجمهم بالحجارة حتى الموت بسبب إيمانهم بالله وعبادته وحده سبحانه، فثبتوا على دينهم، وتمسكوا بعقيدتهم، وواجهوا باطل قومهم وكفرهم بشجاعة وثبات وقوة أمدَّهم الله بها ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا، لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾^(٤)، وإن قوله تعالى:

(١) الآية ١٣ الكهف.

(٢) الآية ١٩ الكهف.

(٣) الآية ١٨ الكهف.

(٤) الآية ١٤ الكهف.

﴿وربطنا على قلوبهم﴾ يدل على أن الفتنة التي تعرضوا لها فتنة كبيرة وشديدة، وأن المحنة التي وقعوا بها محنة عصبية وأليمة، لأن معنى (ربطنا على قلوبهم): ثبتنا قلوبهم وقوينها على الصبر حتى لا يجزعوا ولا يخافوا من قول الحق، ويصبروا على فراق الأهل والنعيم والفرار بالدين إلى كهف في جبل موحش لا ماء فيه ولا طعام.

فالربط على القلب لا يكون إلا عند الأحداث الكبيرة المخيفة المرعبة، التي تتزلزل لها القلوب وتجزع فيها النفوس، كحال أصحاب رسول الله ﷺ عند مواجهتهم لجيش الكفار في بدر وقد كانوا أكثر عدداً وعدة من المسلمين، فثبتهم الله سبحانه وتعالى وربط على قلوبهم، وأخبر عن ذلك بقوله: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ، وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ، وَيُذَهِّبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ، وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾^(١).

وكحال أم موسى عليها السلام عندما سمعت أن ولدها أصبح في يد فرعون وملئه، فخافت عليه خوف الأم على ولدها، وكادت أن تظهر أمرها وأمره، ولكن الله سبحانه وتعالى ثبتها وربط على قلبها، وقال في ذلك ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ، لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

وأصل معنى الربط: الشد المعروف، تقول ربطت الدابة: شددتها برباط، واستعمل في الآية على سبيل المجاز، ربط الله على قلبه إذا ثبته وصبره. وثبت أصحاب الكهف على دينهم وصبروا على فراق أهلهم وأوطانهم بسبب ربط الله سبحانه على قلوبهم، وقاموا يواجهون باطل قومهم ويعلمون الحق في وجوههم ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِ إِلَهِ...﴾.

(١) الآية ١١ الأنفال.

(٢) الآية ١٠ القصص.

ألا ما أشد ثباتهم!! وما أعظم نعمة الله عليهم بربطه على قلوبهم، فالنفي بـ (لن) أبلغ من النفي بغيرها، لأنها تفيد استغراق الزمان كل الزمان، فلن يتجهوا بالعبادة إلى غيره سبحانه أبداً، لأنه وحده المستحق للعبادة ﴿لقد قلنا إذا شططاً﴾ أي قولاً ذا شطط، أي بعيد عن الحق مفرط بالبعد، أو قولاً هو عين الشطط، وهو من فعل: شطَّ إذا أفرط في البعد.

ومن نتائج ربط الله سبحانه على قلوبهم أيضاً أنهم أنكروا على قومهم عقيدتهم الفاسدة وعبادتهم لغير الله سبحانه ﴿هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة﴾ فكلامهم عن قومهم إخبار بمعنى الإنكار، ﴿لولا يأتون عليهم بسلطان بين﴾ ولولا هنا للتخصيص والطلب مع الإنكار، والسلطان البين: الدليل القاطع الظاهر، فالعقيدة يجب أن تكون مستندة على دليل ظاهر وبرهان واضح، والعقيدة التي لا دليل عليها مردودة ومرفوضة، والتقليد في أمر العقيدة غير جائز ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾^(١) أي لا أظلم ممن يكذب على الله وينسب له الشريك والولد سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً﴾.

الخروج إلى الكهف

ولا بدَّ لهؤلاء الفتية المؤمنين أمام التهديد والوعيد برجمهم بالحجارة حتى الموت أن يفروا بدينهم، فهم لا يستطيعون مواجهة قوة وجبروت أصحاب السلطة من قومهم، وهم بضعة شباب في مستقبل أعمارهم، لا حول لهم ولا قوة إلا قوة إيمانهم وثقتهم بربهم، فخرجوا من بلدهم وهجروا أهلهم وقصورهم، ولجؤوا إلى كهف في جبل بعيد عن العمران، لا ماء فيه ولا طعام، ولا وطاء ولا غطاء ﴿وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله، فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً﴾^(٢)، وفي الآية دليل على حسن الهجرة لسلامة الدين وقبح المقام في دار الكفر أو في بلد لا

(١) الآية ١٥ الكهف.

(٢) الآية ١٦ الكهف.

تستطيع أن تعبد الله فيه، فالعزلة لسلامة الدين أمر واجب في الإسلام في مثل هذه الظروف، وأرض الله واسعة، ووطن المسلم حيث يستطيع أن يعبد الله ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾^(١). قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: (هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرُونَ فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة)^(٢).

فعلى المسلم أن يفارق الكافرين ويتعد عنهم، وإن له حيثما ذهب مندوحة وملجأ يتحصن فيه ويأمن به على دينه ونفسه وعرضه، كما قال الله تعالى: ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مُرَافِئاً كثيراً وسعةً، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يُدْرِكْهُ الموتُ فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً﴾^(٣).

وجاء في السنة الشريفة عدد من الأحاديث النبوية تحض المسلم على اجتناب مواطن الفتن عند وقوعها، منها قوله ﷺ: «تكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، ومن وجد فيها ملجأ فليعدْ به»^(٤). ومنها أيضاً قوله ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف - قمم - الجبال ومواقع القطر، يفرُّ بدينه من الفتن»^(٥).

وقد تعرض أصحاب الكهف لأعظم الفتن، وهي الفتنة في الدين إذ حاول قومهم أن يفتنوه عن دينهم، فقرروا اعتزال قومهم وهجرة بلدهم وأهلهم، وقال بعضهم لبعض: ﴿وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف﴾ وقوله: ﴿وما يعبدون إلا الله﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على الضمير المنصوب في (اعتزلتموهم) أي: وإذ اعتزلتم القوم ومعبودهم إلا

(١) الآية ٥٦ العنكبوت.

(٢) تفسير ابن كثير.

(٣) الآية ١٠٠ النساء.

(٤) رواه مسلم.

(٥) أخرجه البخاري وأبو داود والنسائي.

الله، فإنهم كانوا يعبدون الله ويعبدون الأصنام كسائر المشركين، ويجوز أن تكون (ما) مصدرية على تقدير: وإذا اعتزلتموهم وعبادتهم إلا عبادة الله، ويحتمل أن تكون (ما) نافية، وتكون جملة ﴿وما يعبدون إلا الله﴾ إخباراً من الله تعالى عن عقيدة الفتيّة وعبادتهم الله وحده، والجملة على هذا المعنى معترضة بين (إذ) وجوابها (فأؤوا)^(١).

منطق المغرورين

ولا ينبغي لمن يتعرض لمثل ما تعرض له أصحاب الكهف أن يغتر بنفسه، وأن يستجيب لنزغات الشيطان بأنك قوي الإيمان يمكنك الثبات ومواجهة الفتنة، ذلك محض الخطأ، وهو منطق المغرورين المخدوعين بأنفسهم المستجيبين لنزغات شياطينهم، فمهما كنت قوي الإيمان فلست أقوى إيماناً من أصحاب الكهف الذين قال الله فيهم: ﴿إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾. والذين ربط الله على قلوبهم كما مر معنا ﴿فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططاً﴾.

ولك في السابقين الأولين إلى الإسلام من أصحاب رسول الله ﷺ قدوة طيبة وأسوة حسنة، فقد هاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم، ثم هاجروا بعد ذلك إلى المدينة المنورة لينضموا إلى رسول الله ﷺ في دار الهجرة، فأين إيمانك من إيمان المهاجرين الذين شهد الله لهم بصدق الإيمان وأثنى عليهم بقوله الكريم: ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون﴾^(٢).

في داخل الكهف

وكان للفتية المؤمنين ثقة بفضل الله سبحانه كبيرة، ورجاء برحمته

(١) انظر تفسير البضاوي.

(٢) الآية ٨ الحشر.

الواسعة، فتوكلوا عليه سبحانه وسلّموا إليه أمرهم، وفوضوا إليه شأنهم، وقال بعضهم لبعض: ﴿فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَاقًا﴾ ومعنى (فأووا إلى الكهف) التجئوا إلى الكهف واتخذوه مأوى لكم، (ينشر لكم ربكم) ييسط لكم ويوسع عليكم ربكم (من رحمته) (ويهيئ) يسهل (لكم من أمركم) الذي أنتم فيه، وهو الفرار بالدين واعتزال الأهل والمال والوطن (مرفقاً) ما ترتفقون وتتفنون به.

وجاء جواب فعل الأمر (فأووا) في قوله تعالى (ينشر) مجزوماً، وهذا يدل على نصوح يقينهم وصفاء إيمانهم وقوة وثوقهم بفضل الله تعالى، ورحم الله سيد قطب عندما قال في ظلال هذه الآية: (وهنا ينكشف العجب في شأن القلوب المؤمنة، فهؤلاء الفتية الذين يعتزلون قومهم، ويهجرون ديارهم، ويفارقون أهلهم، ويتجردون من زينة الأرض ومتاع الحياة، هؤلاء الذين يأوون إلى الكهف الضيق الخشن المظلم، هؤلاء يستروحون رحمة الله، ويحسون هذه الرحمة ظليلة فسيحة ممتدة ﴿ينشر لكم ربكم من رحمته﴾ ولفظه (ينشر) يلقي ظلال السعة والبحبوحة والانفساح، فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب وسيع تنتشر فيه الرحمة وتتسع خيوطها وتمتد ظلالها وتشملهم بالرفق واللين والرخاء... إن الحدود الضيقة لتتراح، وإن الجدران الصلدة لترق، وإن الوحشة الموغلة لتشف، فإذا الرحمة والرفق والراحة، والارتفاق، إنه الإيمان، وما قيمة الظواهر؟ وما قيمة القيم والأوضاع والمدلولات التي تعارف عليها الناس في حياتهم الأرضية؟ إن هنالك عالماً آخر في جنبات القلب المعمور بالإيمان المأنوس بالرحمة، عالماً تظله الرحمة والرفق والاطمئنان والرضوان^(١).

مدة نومهم في الكهف

ونام الفتية في الكهف متوكلين على الله تعالى ومفوضين أمرهم إليه، ثقة برحمته، واعتماداً على فضله، وشاءت حكمته سبحانه وتعالى وإرادته أن

(١) في ظلال القرآن.

يمتد نومهم ويطول حتى يتجاوز حدود الليالي والشهور إلى السنين والقرون، ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾^(١).

وضربه جلّ وعلا على آذانهم كناية عن كونه سبحانه أنامهم، ومفعول (ضربنا) محذوف، أي ضربنا على آذانهم حجاباً مانعاً من السماع، فلا يسمعون شيئاً يوقظهم، والمعنى: أنماهم إنامة ثقيلة لا تنبههم فيها الأصوات، وعبر بالضرب ليدل على قوّة المباشرة واللصوق واللزم، ومنه قوله تعالى: ﴿ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ أَيْنَمَا تُقِفُوا﴾^(٢)، وذكر الجارحة التي هي الآذان لأن منها يكون السمع، ولا يستحكم نوم إلا مع تعطل السمع، ومن ثقل نومه واستحكم حتى منعه من القيام إلى صلاة الصبح يكون كما قال عنه النبي ﷺ: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنه»^(٣).

ولم تبين الآية هنا مدة نومهم، وذكر الله تبارك وتعالى في آية أخرى مدة نومهم فقال: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾^(٤)، وهذا هو الحق الصحيح الذي لا يحوم حوله شك، فلا يعلم مدة نومهم إلا الله سبحانه وتعالى الذي ضرب على آذانهم، ولهذا جاء التعقيب على الإخبار بمدة نومهم بقوله سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا، لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمَعْ، مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ، وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾^(٥).

فهو سبحانه الذي يعلم غيب السموات والأرض، أي جميع ما غاب فيهما، فالغيب مصدر بمعنى الغائب والخفي، وقوله تعالى: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمَعْ﴾ أي ما أبصره وما أسمعته جلّ وعلا!! فعلم الغيب أمر عظيم من شأنه

(١) الآية ١١ الكهف.

(٢) الآية ١١٢ آل عمران.

(٣) انظر أضواء البيان، والحديث في صحيح مسلم.

(٤) الآية ٢٥ الكهف.

(٥) الآية ٢٦ الكهف.

أَن يُتَعَجَّبَ مِنْهُ ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا، وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ، وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (١).

والسمع والبصر صفتان من صفات الله سبحانه غير صفة العلم، وبصره وسمعه سبحانه لا يشبهان بصر المبصرين ولا سمع السامعين، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٢)، فَإِنَّ اللَّطِيفَ وَالْكَلِيفَ، وَالصَّغِيرَ وَالْكَبِيرَ، وَالْجَلِيَّ وَالْخَفِيَّ، وَالسَّرَّ وَالْعَلْنَ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ فِي عَدَمِ الْاِحْتِجَابِ عَنْ بَصَرِهِ وَسَمْعِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى (٣).

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ أي تسع سنين، فَإِنَّهُ إِذَا سَبَقَ عَدَدٌ مَفْسَّرٌ، وَعُطِفَ عَلَيْهِ مَا لَمْ يُفْسَرْ حُمِلَ تَفْسِيرُهُ عَلَى السَّابِقِ، فَمُدَّةُ نَوْمِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ ثَلَاثُمِائَةٍ وَتِسْعُ سِنِينَ بِالتَّوْقِيتِ الْقَمَرِيِّ، وَثَلَاثُمِائَةُ سَنَةٍ بِالتَّوْقِيتِ الشَّمْسِيِّ.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ أي: مَا لِلْفَتْيَةِ وَلِيٌّ يَتَوَلَّى أَمْرَهُمْ، فَهُوَ سَبْحَانَهُ وَلِيَّهُمْ كَمَا هُوَ سَبْحَانَهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ، وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (٤).

الحكم لله وحده

وختَمَ اللَّهُ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ فَالْحُكْمُ لِلَّهِ وَحْدَهُ يَحْكُمُ مَا يَرِيدُ وَلَا حُكْمَ لغيره سبحانه، فَالْحَلَالُ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ تَعَالَى وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَهُ، وَالْدِّينُ مَا شَرَعَهُ، وَالْقَضَاءُ مَا قَضَاهُ وَقَدَّرَهُ، وَكَمَا أَنَّ الْخَلْقَ لَهُ، فَالْأَمْرُ لَهُ أَيْضًا: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٥).

(١) الآية ٥٩ الأنعام.

(٢) الآية ١١ الشورى.

(٣) روح المعاني.

(٤) الآية ١٩٦ الأعراف.

(٥) الآية ٥٤ الأعراف.

ويفهم من هذه الآية ﴿ولا يشرك في حكمه أحداً﴾ ومن أمثالها أن متبعي أحكام المشرعين غير ما شرعه الله مشركون بالله إن استحلوا ذلك، وفضلوا هذه الشرائع الوضعية على شريعة الله، وقد جاء هذا المفهوم مبيناً في آيات أخر، كقوله فيمن اتبع تشريع الشيطان في إباحة الميتة بدعوى أنها ذبيحة الله: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسمُ الله عليه، وإنه لفسقٌ، وإنَّ الشياطينَ ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم، وإن أطيعموهم إنكم لمشركون﴾^(١) فصرح بأنهم مشركون بطاعتهم الشياطين، وهذا الإشراف في الطاعة واتباع التشريع المخالف لما شرعه الله تعالى هو المراد بعبادة الشيطان في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ. وَإِنِ اعْبَدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾^(٢).

قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله بعد أن ذكر عدداً من الآيات القرآنية في هذا المعنى: (وبهذه النصوص السماوية التي ذكرنا يظهر غاية الظهور أن الذين يتبعون القوانين الوضعية التي شرعها الشيطان على ألسنة أوليائه مخالفة لما شرعه جل وعلا على ألسنة رسله ﷺ، أنه لا يشك في شركهم وكفرهم إلا من طمس الله بصيرته وأعماه عن نور الوحي مثلهم)^(٣).

من آيات الله سبحانه

وإذا العناية راقبتك عيونها نَمَ فالحوادث كُلُّهُنَّ أَمَانٌ

ونشر الله سبحانه رحمته على الفتية وهم نائمون في الكهف، وتولاهم بعنايته، وحفظهم هذه المدة الطويلة بحفظه ورعايته، فلم تمتد إليهم يد البلى، ولا نالت منهم رطوبة الأرض وبرودتها، ولا أثرت فيهم حرارة الشمس ويبوستها، ولم يَطَّلَع عليهم إنسان ولا اقترب منهم حيوان، كانوا طول مدة

(١) الآية ١٢١ الأنعام.

(٢) الآيتان ٦٠ - ٦١ يس.

(٣) انظر أضواء البيان.

نومهم محفوظين بحفظ الله تعالى الذي لا يرام، محروسين بعينه سبحانه التي لا تنام.

حبس الله عنهم بقدرته شعاع الشمس فما مسَّهم ولا أصاب أجسادهم: ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين﴾ أي تميل عنهم إلى جهة يمين الكهف، فلا يقع شعاعها عليهم فيؤذيهم، ﴿وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال﴾ أي تعدل عنهم إلى شمال الكهف ﴿وهم في فجوة منه﴾ وهم في وسط الكهف بحيث ينالهم الهواء ولا يؤذيهم حر الشمس.

وصرَّف أشعة الشمس عنهم من الأمور الخارقة للنواميس الكونية، وهو من الآيات الدالة على قدرة الله سبحانه وتعالى، ولهذا قال بعدها: ﴿ذلك من آيات الله، من يهد الله﴾ أي من يده الله سبحانه على الحق ويوفقه للعمل به ﴿فهو المهتد﴾ الفائز والناجح في الدنيا والآخرة، وهذا ثناء من الله سبحانه على أصحاب الكهف، فقد هداهم الله سبحانه ووفقهم ونشر رحمته عليهم، وجعل لهم في الكهف مرفقاً، ﴿ومن يضل﴾ ومن يخذله الله ويصرفه عن الحق ﴿فلن تجد له ولياً مُرشداً﴾^(١).

الحارس الأمين

وطول النوم يستدعي عادة تغييراً في جسد الإنسان من استرخاء وهيئات خاصة يكون عليها النائم، فما بالك إذا طال النوم وامتد إلى سنين وقرون!! ومع ذلك فإن الله سبحانه حفظهم بحفظه وأحاطهم بعنايته ولطفه، فلم تتغير أجسادهم، ولم يطرأ عليهم طول مدة نومهم ما يؤثر فيها، حتى إن الناظر إليهم يظنهم مستيقظين لا نائمين ﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾ وهذا تأكيد لقدرة الله سبحانه وعنايته بهم وحفظه لهم، فالفتية طول مدة نومهم كانوا أحياء نائمين لا أمواتاً هامدين، فقد كانوا يتحركون ويتقلبون.

ونام كلبهم أيضاً مثلهم ﴿وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد﴾ في مدخل

(١) الآية ١٧ الكهف.

الكهف. وإن ذكر الآية لكلبهم يدل دلالة واضحة أن جميع أسباب الحفظ والحراسة الأرضية التي يلجأ إليها الإنسان وهو في مثل حال أصحاب الكهف قد تعطلت وتوقفت، فقد نام حارسهم ولم يبق ثمة أحد يحرسهم، وليس ثمة باب يُغلق دونهم، ولا جدران تمنعهم، ولا عمران يحيط بهم، فمن يتولى حراستهم دون طوارق الليل في هذا الجبل البعيد المقفر؟!

إنها عناية الله وإنهم في كنف الله، سخر الله لهم جندياً من جنوده تولى حراستهم على مدى ثلاثة قرون كاملة، لم يغفل خلالها ولم ينم، ولم يتبدل أو يتغير، حرسهم الله بالرعب ﴿لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً﴾^(١) ألقى الله عليهم وعلى كهفهم من الهيبة والجلال والرعب بحيث لم يجرؤ أحد من إنسان ولا حيوان أن يدنو منهم، والرعب من جنود الله ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾^(٢)، وقد سخر الله الرعب لنبيه ﷺ ونصره به على أعدائه وبينه وبينهم مسيرة شهر، فبعد أن جمع الروم جموعهم في تبوك وحشدوا فيها جيوشهم، تراجعوا وانسحبوا خائفين مذعورين عندما سمعوا بخروج النبي ﷺ من المدينة إلى حربهم وقتالهم، ولما وصل النبي ﷺ إلى تبوك لم يلق جيشاً يقاقله ولا عدواً يحاربه، نصره الله عز وجل بجندي واحد من جنوده على أكبر دول الأرض حينئذ وأقواها عدداً وعدداً، قال ﷺ: «أعطيت خمساً لم يُعْطَ أحد من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»^(٣) وواضح ما في الآيات من الدلالات المتعددة على ثبوت الكرامات للأولياء والصالحين، فلا شك في ولاية أصحاب الكهف وصلاحهم، وما أكرمهم الله به من خوارق العادات دليل واضح على ثبوت الكرامات لأهل الولاية والصلاح.

(١) الآية ١٨ الكهف.

(٢) الآية ٣١ المدثر.

(٣) متفق عليه من حديث جابر.

البعث من النوم

وبعد أن ضرب الله على آذانهم فناموا ثلاثة قرون كاملة، أيقظهم الله سبحانه بقدرته، فبعثهم من نومهم، وأثارهم من رقادهم: ﴿فَضْرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾. ثم بعثناهم لنعلم أيّ الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً^(١)، وكما أظهر الله سبحانه كمال قدرته بضربه على آذانهم سنين عدداً، أظهر سبحانه أيضاً كمال قدرته ببعثهم من نومهم، وترتب على ذلك أيضاً بيان كمال علمه سبحانه بمدة نومهم، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لَنَعْلَمَ أَيِ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لَمَّا لَبثُوا أَمَدًا﴾ فمن حِكمِ بَعَثِ الله سبحانه أصحاب الكهف من نومهم أن يبين للناس أيّ الحزبين المختلفين في مدة لبثهم أحصى لذلك وأضبط له، وقد سكت الآيات الكريمة عن الحزبين المذكورين، فلم تبين شيئاً عنهما، فلا يسعنا إلاّ السكوت والإمساك عن الخوض فيهما التزاماً لما سبق ذكره في بحث (مصادر قصة أصحاب الكهف). وإن المفسرين الذين حاولوا الكشف عن حقيقة الحزبين المذكورين لم يصلوا إلى شيء مفيد، وجاءت أقوالهم مختلفة ومضطربة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لَنَعْلَمَ﴾ أي لنعلم اختلاف الحزبين واقعاً وحادثاً كما سبق أن تعلق به علمنا منذ الأزل، فليس في الآية ما يدل على أنه سبحانه لم يكن عالماً بذلك قبل بعثهم، فهو سبحانه عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون، لا يخفى عليه شيء، كما سبق بيانه ودلت عليه آيات كثيرة.

محاورة بعد النوم

ومن الطبيعي أن يتساءل الفتية بعد بعثهم من النوم عن مدة نومهم، وأن تختلف آراؤهم ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾، قال قائل منهم: كم لبثتم؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم، قالوا ربكم أعلم بما لبثتم^(٢). واللام في قوله تعالى: ﴿لِيَتَسَاءَلُوا﴾ لام العاقبة، فبعد أن بعثهم الله من نومهم تساءلوا

(١) الآيتان ١١ - ١٢ الكهف.

(٢) الآية ١٩ الكهف.

بينهم، وليست لام التعليل، فلم يبعثهم الله ليتساءلوا. والحوار الذي حدث بينهم بعد استيقاظهم حول مدة نومهم يدل على أن الله سبحانه حفظ أجسادهم طول هذه المدة من التغير، فلم تطل شعورهم وأظفارهم، ولم تصفرّ وجوههم وتبلى ثيابهم، كما زعم بعض المفسرين، فلو كان أصحاب الكهف بتلك الصفات لأنكروا أحوالهم عند استيقاظهم ولم يقولوا: ﴿لبنا يوماً أو بعض يوم﴾^(١) وإن قوله تعالى: ﴿وكذلك بعثناهم﴾ يدل على عدم حدوث التغير في أجسامهم، لأن معناها: كما أنمناهم وحفظنا أجسامهم طول هذه المدة بعثناهم^(٢).

النقود الفضية

وصرفهم الإحساس بالجوع عن التفكير في مدة نومهم إلى التفكير في تدبير طعام يسدّون به جوعهم، فأحضّر أحدهم نقوداً فضية كانت معهم وقال: ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة﴾ المعهودة التي عاشوا بها وخرجوا منها ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً﴾ فليبحث عن أحلّ الطعام وأطيبه ﴿فَلْيَأْتِكُمْ برزق منه﴾ أي من ذلك الطعام.

وهكذا أرسلوا واحداً منهم بالنقود الفضية التي كانت معهم ليحضر لهم طعاماً من المدينة، وأوصوه بالحذر، وأن يحسن التخفي حتى لا ينكشف أمرهم ويفتضح شأنهم ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾^(٣) وأكدوا وصيتهم له ببيان ما يترتب على انكشاف أمرهم من الخطر على حياتهم أو عقيدتهم ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ بالحجارة حتى الموت ﴿أَوْ يَعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلَحُوا إِذَا أُنْذِرَ﴾^(٤). وهذا يدل على أن الفتية كانوا حذرين خائفين أن ينكشف أمرهم، ولم يعلموا أن الأعوام قد كرّرت، وأن عجلة

(١) انظر روح المعاني.

(٢) لباب التأويل (تفسير الخازن).

(٣) الآية ١٩ الكهف.

(٤) الآية ٢٠ الكهف.

الزمان قد دارت، وأن أجيالاً قد تعاقبت، وأن معالم المدينة التي يعرفونها قد تغيرت، وأن دولة الظالمين والمتسلطين الذين كانوا يخافون منهم قد دالت، وأن قصتهم أصبحت خبراً من أخبار التاريخ يتناقله الخلف عن السلف. ويبدو أن تلك النقود الفضية كانت سبب انكشاف أمرهم، وظهور حقيقتهم.

إظهار الحقيقة

﴿وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها﴾ وكما ضرب الله سبحانه على آذان أصحاب الكهف فجعلهم ينامون طيلة ثلاثة قرون متوالية، أطلع الناس عليهم وكشف لأهل مدينتهم حقيقتهم، فالإعثار: معناه الاطلاع والعرافان، لأن العاثر الذي يسقط لوجهه ينظر إلى موضع عثرته، وكان الإعثار مفاجأة كبيرة لأصحاب الكهف، عرفوا بعدها أن الدنيا تغيرت كثيراً من حولهم وأنهم من جيل قديم مضت عليه قرون، وأنهم أصبحوا أعجوبة في نظر الناس، وأن كل ما يربطهم بجيلهم من قرابات وصلات ومعاملات ومشاعر وعادات انقطع وانتهى، فسألوا الله سبحانه أن يميّتهم، واستجاب الله دعاءهم فماتوا والناس خارج كهفهم يتنازعون في أمرهم.

وقد بينت الآية الكريمة الحكمة العظمى والعبرة الكبرى من إظهار حقيقة أصحاب الكهف ﴿وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها﴾ فالحكمة من إظهار أمرهم أن يعلم الناس أن وعد الله حق، وأن يوم القيامة آتٍ لا ريب فيه، إذ دلّت قصة أصحاب الكهف على بعث الناس يوم القيامة بمثلٍ واقعي محسوس يقرب للناس حقيقة يوم القيامة، ولهذا بعث الله سبحانه الفتية من نومهم وكشف شأنهم للناس، فمن قدر على حفظ أجسام أصحاب الكهف مدة ثلاثة قرون متوالية من التفتت والتعفن والتحلل مع تعرضهم للحر والبرد والشمس والهواء وحاجتهم إلى الطعام والشراب، صحت قدرته على إعادة الأجساد بعد موتها وتفرق

أجزائها، والبعث من الموت يشبه البعث من النوم، النوم قبض جزئي للروح، بينما الموت قبض كامل للروح وفصل لها عن جسدها ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها، فيُمسك التي قضى عليها الموت ويُرسَلُ الأخرى إلى أجل مسمى، إنَّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾^(١)، وقال أيضاً: ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار، ثم يبعثكم فيه ليقيضَ أجل مُسمًى، ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾^(٢).

مسجد على الكهف

ويبدو أن نزاعاً واختلافاً حصل بين الناس بعد انكشاف أمر أصحاب الكهف، فبعضهم أراد أن يسد باب الكهف ببناء ﴿فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم﴾ ورأى آخرون، وهم أصحاب الكلمة المسموعة الذين إذا أرادوا أمراً لم يتعسر عليهم، بناء مسجدٍ عند الكهف ﴿قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذنَّ عليهم مسجداً﴾^(٣).

ولا تدل الآية على جواز بناء المساجد على قبور الصالحين، فليس فيها سوى حكاية رأي فريق من الناس كانوا في عصر انكشاف حال أهل الكهف، إذ ليس في الآية مدح لهم وحض على التأسي بهم^(٤).

وقد صحَّ أن النبي ﷺ نهى عن بناء المساجد على القبور، ففي صحيح مسلم عن عائشة أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرا لرسول الله كنيسته رأيتهما بالحنشة فيها تصاوير، فقال رسول الله ﷺ: «إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة» وروى مسلم في صحيحه أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه: «لعن الله اليهود

(١) الآية ٤٢ الزمر.

(٢) الآية ٦٠ الأنعام.

(٣) الآية ٢١ الكهف.

(٤) انظر روح المعاني.

والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» قالت: فلولا ذاك أبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً.

ومن المعلوم أنه ﷺ دفن حيث توفي في حجرة السيدة عائشة رضي الله عنها وكانت خارج المسجد، ولما احتيج إلى توسعة المسجد ضمت الحجرات إلى المسجد في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك وأصبحت الحجرة النبوية داخل المسجد النبوي الشريف.

تأديب وتعليم

وختمت الآيات الكريمة قصة أصحاب الكهف بحكاية بعض ما وقع بين الناس من تنازع حول عددهم كما سبق بيانه، ثم التفتت الآيات إلى النبي ﷺ تأمره أن يرد علم ذلك إلى الله سبحانه ﴿قل ربي أعلم بعدتهم﴾ فقصة أصحاب الكهف طواها الزمن وأصبحت من الغيب الموكول إلى علم الله سبحانه.

وكما أن الماضي غيب بالنسبة للإنسان، فالمستقبل أيضاً غيب بالنسبة له، لا يدري الإنسان عنه شيئاً وهو أيضاً موكول إلى علم الله ومشيبته، فعلى الإنسان ألا يقطع بأمر سيفعله في المستقبل، إلا أن يعلقه على مشيئة الله تعالى، فكل شيء فيه مرهون بإرادته سبحانه، ولا يعلم الإنسان شيئاً وراء اللحظة الحاضرة التي يعيش فيها، وعينه عاجزة أن ترى ما وراء لحظة الحاضر الذي هو فيه ﴿ولا تقولنَّ لشيءٍ إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾ وهذا النهي تعليم من الله تعالى للنبي ﷺ، فعندما سئل عن الروح وأصحاب الكهف وذو القرنين قال ﷺ: «غداً أخبركم» ولم يستثن، أي لم يقل: إن شاء الله، كما مر معنا في سبب النزول.

والمعنى: لا تقولنَّ لأجل شيء تعزم على فعله في المستقبل إني فاعل ذلك الشيء غداً ﴿إلا أن يشاء الله﴾ أي إلاً قاتلاً ذلك، أي معلقاً بمشيئة الله، والمراد بالغد: ما يستقبل من الزمان لا خصوص الغد، فمن أساليب

العربية إطلاق الغد على المستقبل من الزمان ومنه قول الشاعر زهير بن أبي سلمى:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم
ففي الآية الكريمة تأديب من الله تعالى للنبي ﷺ وتعليم، مما يدل
دلالة قاطعة على أن القرآن الكريم كلام الله منزل على رسول الله ﷺ، ومع
كون الخطاب للنبي ﷺ فحكمها عام لجميع المكلفين.

﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ أي اذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت
الاستثناء، فكان ترك الاستثناء ذنب يستدعي التوبة والاستغفار.

﴿وقل عسى أن يهدين ربي﴾ أن يوفقني ﴿لأقرب من هذا رشداً﴾^(١)
أي لشيء أقرب وأظهر من نبأ أصحاب الكهف يدل على صحة نبوتي ويرشد
إلى صدق رسالتي، وقد فعل عز وجل ذلك فأعطى النبي ﷺ كثيراً من الآيات
البيانات كقصص الأنبياء المتباعدة في الماضي، والإخبار عن كثير من
الحوادث المستقبلية، ففي الآية تهوين من الله عز وجل لقصة أصحاب
الكهف، وهذا ينسجم مع تهوينه لها أولاً في قوله سبحانه: ﴿أم حسبت أن
أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا﴾^(٢).

وقد نبه سيد قطب رحمه الله في ظلال هذه الآية الكريمة إلى أمر هام
فقال: (ليس معنى هذا أن يقعد الإنسان ولا يفكر في أمر المستقبل ولا يدبر
له، وأن يعيش يوماً بيوم ولحظة بلحظة، وألا يصل ماضي حياته بحاضره
وقبله. . . كلا، لكن معناه أن يحسب حساب الغيب وحساب مشيئة الله التي
تدبره، وأن يعزم ما يعزم ويستعين بمشيئة الله على ما يعزم، ويستشعر أن يد
الله فوق يده، فإن وفقه الله إلى ما اعتزم فيها، وإن جرت مشيئة الله بغير ما
دبر لم يحزن ولم ييأس لأن الأمر لله أولاً وآخراً)^(٣) وما أجمل قول النبي ﷺ

(١) الآية ٢٤ الكهف.

(٢) انظر روح المعاني.

(٣) في ظلال القرآن.

في هذا المعنى: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»^(١).

تعقيب

لقد نَجَّى اللهُ سبحانه أصحاب الكهف من الفتنة التي تعرضوا لها في دينهم حين التجؤوا إلى الله وحده، فلم يسألوا سواه سبحانه ولم يستعينوا بغيره كما مر معنا، ولهذا جاء التعقيب على قصتهم بأمر النبي ﷺ بتلاوة القرآن الكريم والتوجه إلى الله سبحانه والاستعانة به، فلا يوجد غير حمى الله، وقد التجأ إليه أصحاب الكهف فشم لهم برحمته وحمايته وهداه، ونجاهم من الفتنة الكبرى في دينهم، وجعلهم آية وعبرة لغيرهم ﴿اتل ما أوحى إليك من كتاب ربك﴾، وهو أمر من التلاوة بمعنى القراءة أو يكون أمراً من التلو، بمعنى الاتباع أي: اتبع ما أوحى إليك والزم العمل به^(٢). وقد يكون كلا المعنيين مراداً، فالأمر يتناول التلاوة والاتباع، والخطاب وإن كان للنبي ﷺ فهو شامل لجميع المكلفين.

﴿لا مبدل لكلماته﴾ لا يقدر أحد على تبديل كلمات القرآن الكريم غيره سبحانه.

﴿ولن تجد من دونه مُلتحداً﴾ أي ولن تجد عند غير الله ملجأ تلجأ إليه عند نزول نازلة فكهف السلامة في كتاب الله تلاوةً واتباعاً وفي سنة رسول الله ﷺ، ففيهما السلامة والسلام والأمن والأمان عند مواجهة النوازل والفتن، أعاذنا الله منها.

(١) رواه مسلم.

(٢) روح المعاني.

الفصل الثالث

قصة الغني والفقر

- | | |
|------------------------|--------------------------------------|
| زينة الحياة الدنيا . | فتنة الغنى وفتنة الفقر . |
| الباقيات الصالحات . | الغفلة عن ذكر الله . |
| مشاهد من يوم القيامة . | رجلان وجنتان . |
| فتنة الشيطان . | الجنة . |
| سبيل النجاة . | المحاوراة . |
| أمثال القرآن الكريم . | عزة الإيمان . |
| أسباب الضلال . | حسرة وندم . |
| | التحذير من الاغترار بالحياة الدنيا . |

القصة الثانية قصة الغني والفقر

تمهيد: فتنة الغنى وفتنة الفقر:

التفاوت بين الناس من أعظم أسباب الاختلاف والفتن وخاصة التفاوت بينهم بالغنى والفقر، فالأغنياء فتنة كبيرة للفقراء، والفقراء كذلك فتنة كبيرة للأغنياء، هكذا شاءت حكمة الله تعالى أن يكون الناس بعضهم لبعض فتنة؛ لأنه سبحانه جعل الحياة ابتلاء واختباراً كما سبق بيانه، قال عز وجل: ﴿وجعلنا بعضهم لبعض فتنة، أتصبرون؟ وكان ربك بصيراً﴾^(١).

وقد كان فقراء الصحابة رضي الله عنهم من السابقين الأولين إلى الإسلام فتنة لأغنياء المشركين، وجاء بعضهم إلى النبي ﷺ وطلبوا منه أن يجلس معهم وحدهم ولا يجالسهم بفقراء أصحابه كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود رضي الله عنهم، فقد روي أنهم قالوا للنبي ﷺ: لو أبعدت هؤلاء عن نفسك لجالسناك، فإن ربح جبابهم تؤذينا، فنزلت هذه الآية ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرطاً﴾^(٢).

(١) الآية ٢٠ الفرقان.

(٢) الآية ٢٨ الكهف.

ومعنى قوله: ﴿واصبر نفسك﴾ احبسها وثبتها مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴿أي مع الذين يعبدون الله ويحمدونه ويكبرونه ويسبحونه في أول النهار وآخره﴾ يريدون وجهه ﴿يريدون رضاه سبحانه وتعالى فلا يعبدونه رياء ولا سمعة، ففي هؤلاء الخير كل الخير، وبهم قامت دعوة الله لأنهم لم يعتنقوها للأطماع وليكون لهم أتباع.﴾

وبعد أن أمرت الآية النبي ﷺ أن يحبس نفسه ويثبتها مع فقراء أصحابه، نهته أن يصرف نظره عنهم إلى غيرهم ﴿ولا تعد عينك عنهم﴾ ولا تصرف عينك النظر عنهم إلى غيرهم، فالمراد نهى رسول الله ﷺ أن يزدري بفقراء المؤمنين وتعلو عينه عن رثائه زيهم طموحاً إلى طراوة زي الأغنياء، ولهذا قال بعد ذلك ﴿تريد زينة الحياة الدنيا﴾، وهذا كقوله تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه، وورق ربك خير وأبقى﴾^(١) وقوله عز وجل أيضاً: ﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم، ولا تحزن عليهم، واخفض جناحك للمؤمنين﴾^(٢).

الغفلة عن ذكر الله

إن فتنة الإنسان بالمال من أعظم الفتن لأنها تصرف قلبه عن ذكر ربه إلى ماله وشهواته، وقد وصف الله سبحانه أولئك المشركين المفتونين بمالهم وغناهم والمتكبرين على فقراء أصحاب النبي ﷺ بقوله: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾ أي لا تطع من جعلنا قلبه غافلاً عن ذكر الله ﴿واتبع هواه﴾ وهذا هو سبب غفلته عن ذكر الله، فحين اتجه قلبه إلى ماله وشهواته لم يبق فيه متسع لذكر الله تعالى، فالقلب الذي ينشغل بهذه الشواغل ويجعلها غايته لا جرم يغفل عن ذكر الله، فيزيده الله غفلة، فشر أحوال الإنسان أن يكون قلبه خالياً عن ذكر الله ممثلاً بالهوى الداعي إلى الاشتغال بالمال والشهوات، وإن مآل مثل هذا الإنسان إلى ضياع وهلاك ﴿وكان أمره فرطاً﴾ فالفرط من

(١) الآية ١٣١ طه.

(٢) الآية ٨٨ الحجر.

التفريط وهو التضييع والنقص، أي كان أمره ضياعاً وهلاكاً، أو من الإفراط وهو الإسراف، أي: وكان أمره إسرافاً ومجاوزة للحد، أو من السبق والتقدم من قولهم فرس فرط أي متقدم للخيّل، ويكون المعنى: وكان متقدماً على الحق معرضاً عنه نابذاً له وراء ظهره^(١).

﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ بكل هذه القوة والصراحة أمر الله سبحانه النبي ﷺ أن يقول لأولئك المفتونين بمالهم المتكبرين: ﴿الحق من ربكم﴾ فالدين لله سبحانه لا مجاملة فيه ولا مساومة ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ والله سبحانه لا يبالي بإيمان من آمن ولا بكفر من كفر، فليس في الآية تخيير بين الإيمان والكفر، والأمر بالكفر فيها غير مراد، إنما فيها تهديد ووعد للكافرين، والدليل عليه قوله تعالى بعدها ﴿إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سُرادقها، وإن يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه، بئس الشراب وساءت مرتفعاً﴾^(٢).

القصة الثانية

رجلان وجنتان

وجاءت القصة الثانية في سورة الكهف متفقة تماماً مع ما سبق وقرره الله تبارك وتعالى من خطورة فتنة الغنى والفقر، وابتلاء الناس ببعضهم نتيجة ما قدره الله بينهم من تفاوت في الرزق.

قال تعالى: ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين﴾ اضرب للمؤمنين الفقراء وللكافرين الأغنياء المفتونين بسبب غناهم، مثلاً رجلين ﴿جعلنا لأحدهما جنتين﴾ أعطينا أحدهما جنتين ولم نعط الآخر.

وقد يعترض بعضهم على إعطاء واحد ومنع آخر، ويرون ضرورة التسوية بينهما بالعطاء، فثمة جنتان ورجلان لكل رجل جنة.

(١) انظر كتاب روح المعاني وكتاب أضواء البيان.

(٢) الآية ٢٩ الكهف.

لكنه سبحانه العليم الحكيم لو سوى بينهما بالعطاء لما حصل الابتلاء ولما وقع الافتتان، وقد خلق الله سبحانه الحياة بما فيها اختباراً للخلق وابتلاء كما سبق بيانه في قوله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

ولو جعل الله سبحانه الناس متساوين بالعطاء لما وقع بينهم تعاون وتواصل، واستغنى كل واحد بما في يده عن الآخرين، وحيثُ تتعطل الحياة وتتوقف لاستحالة أن يعيش الإنسان دون أن يتعاون مع الآخرين، قال عز وجل: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ؟ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ، لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا، وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(١)، ليس للعبيد تقسيم الأرزاق والأعطيات ذلك شأن السيد والمالك، ولا حق للعبد أن يعترض على قسمة ماله وخالقه فيقول: لِمَ أعطيت فلاناً ومنعتني، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، الجميع عبيد له ومملكه، والرزق والعطاء من فضله، وليس لأحد سابقة استحقاق على الله تعالى، فإن أعطى فبفضله وإحسانه، وإن منع فبحكمته ومشئته.

الجنة

ولما كانت الجنة سبب الافتتان والامتحان وصف الله تعالى ما جعل فيهما من ثمرات وما خلق من خيرات فقال عز وجل: ﴿جَعَلْنَا لَأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ بستانين، ولم يعين سبحانه مكانهما فلا يتعلق بذلك فائدة ﴿من أعناب﴾ من كروم متنوعة، وهي أشجار العنب، ﴿وحففناهما بنخل﴾ وجعلنا النخل محيطة بالجننتين ﴿وجعلنا بينهما زرعاً﴾^(٢) لتكونا جامعتين للأقوات والفواكه.

ومن المعلوم أن الثمار تنقص في عام وتتم في عام آخر غالباً، إلا أن الله سبحانه وتعالى جعل الجنتين تعطيان الثمار كاملة دون نقص في جميع

(١) الآية ٣٢ الزخرف.

(٢) الآية ٣٢ الكهف.

الأعوام ﴿كلتا الجنتين آتت أكلها﴾ ثمرها ﴿ولم تظلم منه شيئاً﴾ ولم تنقص من ثمرها شيئاً كما هو المعهود في سائر البساتين، ولكي يدوم شربهما ويزيد جمالهما وبهاؤهما فجّر الله بينهما نهراً ﴿وفجرنا خلالهما نهراً﴾^(١).

وأعطى الله صاحب الجنتين أنواعاً أخرى من المال سوى الجنتين ﴿وكان له ثمر﴾ وإلى جانب هذا كله الأولاد والخدم والحشم، وتلك هي الأمانى التي تتعلق بها قلوب كثير من الناس، قال قتادة رحمه الله: تلك والله أمانة الفاجر كثرة المال وعزة النفس^(٢).

المحاوره

وكان لصاحب الجنتين صديق فقير مؤمن، ويبدو من الآيات الكريمة أن هذا الفقير المؤمن كان يراجع صاحب الجنتين بالوعظ والدعوة إلى الله عز وجل، فما كان من صاحب الجنتين إلا أن ردّ عليه قائلاً ﴿أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾^(٣).

ثم دخل بصاحبه إحدى جنتيه يطوف به فيها وقد ملأ نفسه البطر وسيطر عليه الغرور ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه﴾ وهو ظالم لنفسه بعجبه وكفره، لأنه وضع نفسه في موضع الجحود والنكران بدل أن يضعها في موضع الشكر والعرفان ﴿قال ما أظن أن تببّد هذه أبداً﴾^(٤) اغتر بطول أمله وكثرة ماله، فأوصله ذلك إلى إنكار يوم القيامة ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ كأن الله سبحانه خلقه وأنعم عليه ليأكل ويشرب ويتكبر ويتجبر، ثم ازداد بطراً وأشراً وطغياناً وكبراً فأقسم أنه إن رجع إلى الله يوم القيامة كما أخبره صاحبه المؤمن ليعطيّه الله جنّة خيراً من جنته هذه التي في الدنيا ﴿ولئن رُدِّدْتُ إلى ربي لأجدنّ خيراً منها منقلباً﴾^(٥) لاعتقاده أن الله سبحانه أعطاه ما أعطاه في الدنيا بسبب

(١) الآية ٣٣ الكهف.

(٢) تفسير ابن كثير.

(٣) الآية ٣٤ الكهف.

(٤) الآية ٣٥ الكهف.

(٥) الآية ٣٦ الكهف.

استحقاقه لهذا العطاء، وهكذا سقط صاحب الجنتين بالاختبار وفشل في الامتحان، وفتنه ماله عن دينه.

عزة الإيمان

انتفضت عزة الإيمان في قلب صاحبه المؤمن أمام هذا التكبر والتجبر والجحود والنكران، دون أن يبالي بالمال والنفر، ومن غير أن ينظر للغنى والبطر، فواجهه بحقيقته، وذكره بأصله ونشأته ﴿قال له صاحبه وهو يحاوره: أكفرت بالذي خلّقتك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً﴾^(١) جعل كفره بيوم القيامة كفراً بالله تعالى، لأن منشأ الشك في كمال قدرة الله سبحانه ﴿لكننا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً﴾^(٢) وأصل لكنا: لكن أنا، حذفت الهمزة وتلاقت النون فكان الإدغام، وكلمة لكن تدل على الاستدراك كأنه قال: أنت كافر بالله لكن أنا مؤمن به.

﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله﴾ وهلاً عند دخول جنتك قلت ما شاء الله، وهو إقرار بمشيئة الله، إن شاء أبقاها وإن شاء أبادها، لأن معناها: الأمر ما شاء الله، أو ما شاء الله كائن، ﴿لا قوة إلا بالله﴾ أي وقلت: لا قوة إلا بالله، وهذا اعتراف بالعجز، ورد القدرة إلى الله سبحانه، فما تيسر لك من عمارتها وتدير أمرها فبمعونة الله وتيسره.

وجاء في الخبر عن رسول الله ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل أو مال أو ولد فيقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، إلا دفع الله تعالى عنه كل آفة حتى تأتيه منيته، وقرأ ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾»^(٣).

﴿إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً﴾ إن: أداة شرط وجاء جواب الشرط

(١) الآية ٣٧ الكهف.

(٢) الآية ٣٨ الكهف.

(٣) أخرجه أبو يعلى والبيهقي من حديث أنس.

في قوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾ أي: إن ترن أفقر منك فأنا أتوقع أن يرزقني ربي جنة خيراً من جنتك ويسلبك بكفرك نعمته ﴿وَيُرْسِلْ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ ويرسل عليها بلاءً من السماء ﴿فَتَصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾^(١) فتصبح أرضاً ملساء تزلق عليها الأقدام بسبب هلاك نباتها وأشجارها ﴿أَوْ يَصْبِحَ مَأْوَاهَا غُورًا﴾ غائراً في الأرض ﴿فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾^(٢) فلا تستطيع الوصول إليه.

حسرة وندم

﴿وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ وأهلك الله أمواله، وتدل الآية على وقوع الإهلاك عاجلاً بأفة سماوية ﴿وَأَصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَّهُ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ وتغير حال صاحب الجنتين، فمن الغنى والازدهار إلى الهلاك والدمار، ومن حال البطر والاستكبار إلى حال الندم والاستغفار.

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ وجنته ساقطة على عروشها، والعروش جمع عرش وهو ما يصنع من الأخشاب لتوضع عليها الكروم ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾^(٣) علم أنه أتى من قبل شركه، فتمنى لو لم يكن مشركاً حتى لا يصيبه ما أصابه، وفي الآية دليل على أن إنكار يوم القيامة شرك بالله سبحانه وكفر، لأن منكر يوم القيامة ينسب صفة العجز إلى الله سبحانه وتعالى ويسويه بخلقه، وهذا من الشرك.

﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ﴾ وفئة الرجل طائفته التي يرجع إليها في أموره وشؤونه، والمعنى: ولا توجد فئة تقدر على نصره بدفع الهلاك قبل وقوعه أو برد الهالك ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من غير الله سبحانه، فإنه وحده القادر على نصره ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾^(٤) وما كان ممتنعاً بقوته عن انتقام الله، لأن

(١) الآية ٤٠ الكهف.

(٢) الآية ٤٣ الكهف.

(٣) الآية ٤٢ الكهف.

(٤) الآية ٤٣ الكهف.

النصرة في ذلك المقام الذي وقع فيه الإهلاك لله وحده، فلا قوة إلا قوته ولا نصر إلا نصره سبحانه وتعالى ﴿هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقباً﴾^(١) فتواب الله لأوليائه خير ثواب وعاقبته خير عاقبة، فلا نجاة للإنسان من فتنة المال إلا بالله سبحانه، باللجوء إليه والتمسك بشرعه، فإن أعطاك شكرت وأطعت، وإن منعك صبرت راضياً بحكمه، واثقاً بفضلِهِ وإحسانه.

التحذير من الاغترار بالحياة الدنيا

الاغترار بالدنيا أكبر البواعث التي تبعث على الفتن، ولا سبيل إلى النجاة من الاغترار بالحياة الدنيا إلا بمعرفة حقارتها وبيان سرعة زوالها، وقد ضرب الله هذا المثل بياناً لقصر الحياة الدنيا حتى لا يغتر بها الإنسان ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء، فاختلف به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح، وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾^(٢) والخطاب في صدر الآية للنبي ﷺ ليذكر للناس ما يشبه الحياة الدنيا في زهرتها ونضارتها وسرعة زوالها حتى لا يغتروا بها ويقعوا في شرك فتنها ﴿كماء أنزلناه من السماء﴾ فهي كماء أنزله الله من جهة السماء ﴿فاختلف به نبات الأرض﴾ فاختلف بالماء نبات الأرض حتى نما وازدهى ﴿فأصبح هشيماً﴾ فأصبح بعد ذلك نباتاً مهشماً مكسراً ﴿تذروه الرياح﴾ تفرقه الرياح ﴿وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾^(٢) لأنه سبحانه كامل القدرة. والمتأمل في الآية يرى أنها عرضت مثل الحياة الدنيا عرضاً سريعاً وقصيراً يتناسب مع المراد منها، فقد سبقت الآية للتحذير من الاغترار بالحياة الدنيا وزينتها ببيان سرعة انقضائها وحقارة شأنها، فشأنها كشأن الماء الذي نزل من السماء واختلط بنبات الأرض الذي لا يلبث أن يصبح هشيماً تذروه الرياح، بهذه الجمل الثلاث القصيرة تبدأ الحياة وتنتهي، فما أقصرها وما أهونها!

(١) الآية ٤٤ الكهف.

(٢) الآية ٤٥ الكهف.

زينة الحياة الدنيا

وإذا كانت الحياة الدنيا سريعة الانقضاء وشيكة الانتهاء، فما يكون فيها من أسباب زينتها سريع الانقضاء وشيك الانتهاء، والمال والبنون أكبر زينة في الحياة الدنيا ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ وقَدَّم الله سبحانه ذكر المال لأن زينته في الدنيا عامة لجميع الأفراد والأوقات، وأما البنون فلا يترين بهم إلا من بلغ منزلة الأبوة، ولأن حاجة الإنسان إلى المال أشد من حاجته إلى الأولاد.

إن فتنه الإنسان بالأموال والأولاد كبيرة وخطيرة، ولهذا حذَّر القرآن الكريم من الفتنة بهما في عدة آيات كريمة، منها قوله تعالى: ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة، وأن الله عنده أجر عظيم﴾^(١) فالأموال والأولاد اختبار وامتحان من الله سبحانه، فمن أطاع الله فيهما وشكره عليهما فاز ونجا، ومن شغل بهما عن طاعة ربه سبحانه خاب وخسر.

والتنافس بين الناس في المال والأولاد خطير وكبير، وهو من أكبر أسباب الاختلاف والافتتال وسفك الدماء، كما قال تعالى: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة، وتفاخر بينكم وتكاثر بالأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفراً، ثم يكون حطاماً، وفي الآخرة عذاب شديد، ومغفرة من الله ورضوان، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾^(٢) هكذا حياة أكثر الناس، يدور محور حياتهم الدنيا في فلك التفاخر والتكاثر بالأموال والأولاد، أولئك صرعى أموالهم وأولادهم، المفتونون بهم عن طاعة ربهم، وبهذا تصبح أموالهم وأولادهم أعداء لهم لأنهم سبب فتنتهم عن طاعة ربهم ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم، وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم. إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم﴾^(٣).

(١) الآية ٢٨ الأنفال.

(٢) الآية ٢٠ الحديد.

(٣) الآيتان ١٤ - ١٥ التغابن.

لقد أنزل الله سبحانه بعض الأموال والأولاد من الإنسان منزلة العدو له لشدة خطر الفتنة بهم على دينه، وحذّر الإنسان منهم حتى لا ينشغلوا بهم عن طاعة ربهم ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾^(١).

الباقيات الصالحات

ولا ينتفع الإنسان بأمواله وأولاده يوم القيامة، الانتفاع يوم القيامة بالباقيات الصالحات ﴿والباقيات لصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً﴾ والباقيات الصالحات لفظ عام يشمل كل الأقوال والأعمال الصالحة التي ترضي الله تعالى، فهي باقية لصاحبها غير زائلة ولا نائية، وقوله تعالى: ﴿خير عند ربك ثواباً﴾ أي هي خير يوم القيامة لظهور أثر خيريتها في ذلك اليوم ﴿وخيراً أملاً﴾ لأن صاحبها ينال في الآخرة ما كان يؤمله بها في الدنيا.

وفي الآية دليل على أن المال والبنين زينة وليساً قيمة، فلا يجوز وزن الناس بهما، قيمة الناس بالباقيات الصالحات لا بالفانيات الزائلات، وسبيل النجاة من فتنة الأموال والأولاد إنزالهما سلوكاً وعملاً في منزلتهما الذي وضعهما الله فيه، فهما زينة لا قيمة، والإسلام لم يحرم الزينة ما دامت في حدود ما أحل الله، قال تعالى: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾^(٢).

مشاهد من يوم القيامة

ثم عرضت الآيات الكريمة مشاهد من يوم القيامة تأكيداً لقيمة الباقيات الصالحات وبياناً لأهميتها في هذا اليوم ﴿ويوم نُسِّرُ الجبال وترى الأرض بارزة، وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾^(٣) أي اذكر يوم نزول الجبال عن

(١) الآية ٩ المنافقون.

(٢) الآية ٣٢ الأعراف.

(٣) الآية ٤٧ الكهف.

أماكنها، وترى يا محمد - ﷺ - الأرض بارزة لذهاب جميع ما كان عليها من جبال وعمران، فإزالة الجبال يجعل سطح الأرض مستوياً لا انخفاض فيه ولا ارتفاع، كما في قوله تعالى ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا. لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾^(١).

﴿وحشرناهم﴾ أي جمعناهم إلى أرض المحشر بعد أن بعثناهم من قبورهم ﴿فلم يغادر منهم أحداً﴾ فلم تترك منهم أحداً.

ومن الحشر الشامل إلى العرض الكامل ﴿وعرضوا على ربك﴾ كما يعرض الجند على قائدهم لا ليتعرف عليهم بل ليحكم فيهم ﴿صفاً﴾ أي مصطفين أو مصفوفين.

وتحول الآيات من الوصف إلى الخطاب ليستشعر القارئ أنه يعيش هذا المشهد الرهيب في هذه اللحظة ﴿لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة﴾ وهو خطاب لأولئك الذين كانوا ينكرون يوم القيامة، لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة حفاة عراة غُرلاً، وما معكم شيء من زينة الدنيا التي كنتم تفتخرون بها، وفي الحديث الشريف عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال «أيها الناس: إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غُرلاً كما بدأنا أول خلق نعيده»^(٢).

﴿بل زعتم أن لن نجعل لكم موعداً﴾^(٣) وهو إضراب وانتقال من كلام إلى كلام للتوبيخ والتفريع.

﴿ووضع الكتاب﴾ والمراد من الكتاب كتب الأعمال، فآل فيه للاستغراق، جعل كل كتاب في يد صاحبه اليمين أو الشمال ﴿فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾ خائفين مما في الكتاب من الجرائم والذنوب، ﴿ويقولون يا ويلتنا﴾ ينادون على أنفسهم بالهلاك خوفاً من العذاب، كأنهم

(١) الآيات ١٠٥ - ١٠٦ - ١٠٧ طه.

(٢) متفق عليه.

(٣) الآية ٤٨ الكهف.

يقولون يا هلاك أقبل فهذا أوانك . ﴿مال هذا الكتاب﴾ الاستفهام يدل على التعجب من دقة إحصاء الكتاب ﴿لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾ لا يترك معصية صغيرة ولا كبيرة إلا عدّها، وذكر الصغيرة قبل الكبيرة اهتماماً بها وتنبيهاً على خطرها، رُوي عن الفضيل أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال: ضجّوا والله من الصغائر قبل الكبائر، وقال قتادة: اشتكى القوم كما تسمعون الإحصاء ولم يشتك أحد ظملاً، فإياكم والمحقرات من الذنوب فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه (١) ﴿ووجدوا ما عملوا﴾ في الدنيا ﴿حاضراً﴾ مسطوراً في الكتاب ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ (٢).

فتنة الشيطان

فتنة الشيطان للإنسان أعظم الفتن، وبلاء الإنسان به أشد بلاء، لأن الشيطان رأس الشر ومنبع الكفر، وهو أكبر عدو للإنسان ويجري منه مجرى الدم من العروق، وما أكثر ما حذرنا الله سبحانه منه في آيات التنزيل الحكيم، فقد ذكر الله سبحانه قصة أبينا آدم مع الشيطان في عدة مواضع من القرآن الكريم.

وفي سورة الكهف حذرنا الله منه بعد أن بيّن حال المفتونين بالدنيا والأموال والأولاد، لأن الاغترار بالدنيا والأموال والأولاد أعظم الوسائل التي يتمكن الشيطان بها من فتنة الإنسان، قال تعالى ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس، كان من الجن ففسق عن أمر ربه، أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو، بئس للظالمين بدلاً﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ يدل على أن الشيطان من الجن، وأن ذلك سبب خروجه عن طاعة ربه سبحانه، وأنه ليس

(١) انظر روح المعاني.

(٢) الآية ٤٩ الكهف.

(٣) الآية ٥٠ الكهف.

من الملائكة المعصومين من الكفر والمعاصي والذين قال الله فيهم ﴿لَا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾^(١) وقال أيضاً فيهم ﴿لَا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾^(٢).

وكان إبليس ملحقاً بالملائكة لكثرة عبادته، ولهذا شمله الأمر بالسجود لآدم.

﴿أفنتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو﴾ والاستفهام في الآية للإنكار والتوبيخ مع التعجب من حال أولئك الذين يوالون الشيطان ويتابعونه ويُقتنون به.

والظاهر أن المراد من الذرية، الأولاد، ففي الآية دليل على أن للشيطان أولاداً، وهذا يؤكد أنه ليس من الملائكة، فالملائكة لا يتوالدون، ﴿وهم لكم عدو﴾ وهذا تصريح بعداوة الشيطان وذريته للإنسان ﴿بئس للظالمين﴾ الذين يطيعون الشيطان ويعصون الرحمن ﴿بدلاً﴾ من الله سبحانه.

﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض﴾ ما أشهدت إبليس وذريته وأولياءه من المشركين خلق السموات والأرض.

﴿ولا خلق أنفسهم﴾ ولا أشهدت بعضهم خلق بعض ﴿وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ أي أعواناً ومساعدين ولا يخفى على المتأمل للآية ما فيها من رد على المشركين من قريش، الذين طلبوا من النبي ﷺ أن يُبعد فقراء المسلمين عن مجلسه، كما مر معنا فكأنه تعالى يقول عنهم: إن هؤلاء الذين أتوا بهذا الاقتراح الفاسد ليسوا شركائي في تدبير العالم وخلقه، والدليل أنني ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم، ولا استعنت بهم، فهم كسائر الخلق، فلم أقدموا على هذا الاقتراح الفاسد...؟! كمن يقترح

(١) الآية ٦ التحريم.

(٢) الآية ٢٧ الأنبياء.

عليك أموراً كبيرة، فإنك تقول له مستهزئاً به: لست بسلطان البلد حتى تصدر منك مثل هذه الاقتراحات الكبيرة.

سبيل النجاة

وإذا أردت النجاة من فتنة الشيطان وكيده فاذكر عدوانه لك واستعن عليه بالله سبحانه: ﴿وإِذَا يَنْزَغُنَاكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَّغْ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(١).

واذكر يوم القيامة عندما يقول الله تعالى لأولياء الشيطان الذين أشركوا بالله وعبدوا غيره توبيخاً لهم وتقريعاً: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَوْبِقاً﴾^(٢).

والموبق: المهلك، من قولهم: وَبَقَ يَبِقُ كَوَعَدَ يَعِدُ إذا هلك، وأوبقته الذنوب: أهلكته، ومنه السبع الموبقات، أي المهلكات، والمعنى: جعلنا بين الكفار وبين من كانوا يعبدونهم موبقاً، أي مهلكاً لأن الهلاك يحيط بالجميع من كل جانب.

واحذر أن تكون بطاعتك للشيطان من المجرمين الذين يعلمون أنهم سيقعون في النار ويعذبون بها، عندما يرونها يوم القيامة، ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مُوْاقِعُوهَا ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾^(٣).

والظن هنا بمعنى اليقين، لأنهم أبصروا الحقائق وشاهدوها، والعرب تطلق الظن على اليقين فهو من ألفاظ الأضداد، استعمل في القرآن الكريم بهذا المعنى في آيات كثيرة منها ﴿قال الذين يظنون أنهم مُلاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين﴾^(٤).

(١) الآية ٣٦ فصلت.

(٢) الآية ٥٢ الكهف.

(٣) الآية ٥٣ الكهف.

(٤) الآية ٢٤٩ البقرة.

ومنها أيضاً: ﴿إني ظننتُ أني مُلاقٍ حسابيه﴾^(١).

أمثال القرآن الكريم

والزم القرآن الكريم حتى تصل إلى كهف السلامة من كيد الشيطان ومكره، فقد ذكر الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم كثيراً من الأمثال لهدايتك وإرشادك بعبارات مختلفة وأساليب متنوعة، واذكر كيف بيّن الله تبارك وتعالى في أول سورة الكهف أن إنزال القرآن الكريم هو نعمة الله الكبرى ومنته العظمى، وفي الآية التالية بيّن الله تعالى فضله علينا بما ضرب في القرآن الكريم من الأمثال المتنوعة لتكون أسباب الهداية والرشاد فقال تعالى: ﴿ولقد صرّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل، وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾^(٢).

ومعنى صرّفنا، ردّدنا وكثّرنا، فالأمثال في القرآن الكريم كثيرة ومتنوعة، وقد مرّ معنا بعضها في سورة الكهف، وفي هذه الأمثال المواعظ والزواجر والحكم.

- منها: ﴿إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً؟ يُضِلُّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضلُّ به إلاّ الفاسقين﴾^(٣).

- ومنها قوله تعالى: ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له: إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه، ضَعُف الطالب والمطلوب﴾^(٤).

- ومنها قوله أيضاً: ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل

(١) الآية ٢٠ الحاقة.

(٢) الآية ٥٤ الكهف.

(٣) الآية ٢٦ البقرة.

(٤) الآية ٧٣ سورة الحج.

العنكبوت اتخذت بيتاً، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴿١﴾.

- ومنها أيضاً قوله عز وجل: ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها، فاحتمل السيل زبداً رابياً، ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله، كذلك يضرب الله الحق الباطل، فأما الزبد فيذهب جفاءً، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض، كذلك يضرب الله الأمثال﴾ ﴿٢﴾.

وهكذا ضرب الله الأمثال وميز بين الحق والباطل والهدى والضلال، ومع كل ذلك قابل الناس هذا البيان بالجدال والخصام ﴿وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً﴾ وهذا كقوله سبحانه: ﴿ولقد صرفنا في هذا القرآن ليعلموا وما يزيدهم إلا نفوراً﴾ ﴿٣﴾.

أسباب الضلال

وقد يسأل الإنسان نفسه عن سبب إعراضهم عن الحق مع وضوحه وظهوره بكثرة الأدلة الدالة عليه، والجواب في الآيات التالية والمبدوءة بقوله تعالى: ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلاً﴾ ﴿٤﴾.

فالمانع الذي منع الناس من الإيمان والاستغفار بعد أن جاءتهم الرسل بالبينات الواضحات ما سبق في علم الله تعالى من أنهم لا يؤمنون، بل يستمرون على كفرهم وعنادهم حتى تأتيهم سنة الله في إهلاك الكافرين واستئصالهم، أو يأتيهم العذاب أنواعاً مختلفة يتلو بعضها بعضاً، أو عياناً يروونه بأعينهم.

وما أرسل الله الرسل إلا ليقيم الحجة على الناس، يبشرون من أطاع

(١) الآية ٤١ العنكبوت.

(٢) الآية ١٧ الرعد.

(٣) الآية ٤١ الإسراء.

(٤) الآية ٥٥ الكهف.

الله بالجنة، وينذرون من عصاه بالنار، ﴿وما نُرسلُ المرسلين إلا مبشرين
ومُنذرين، ويجادل الذين كفروا بالباطل لِيُدحضوا به الحق﴾.

وهذا تخصيص للتعميم السابق في قوله تعالى ﴿وكان الإنسان أكثر
شيء جدلاً﴾ فالمجادلون بالباطل هم الذين كفروا ﴿ليدحضوا به الحق﴾
ليبطلوا الحق بجدهم وخصامهم، ومع الجدل والخصام ﴿واتخذوا آياتي
وما أنذروا هزواً﴾^(١) أي سخرية واستخفافاً.

ولا يوجد أحد أظلم لنفسه وأعظم فتنة من أولئك الذين وعظوا بآيات
القرآن الكريم فأعرضوا عنها، ﴿ومن أظلم ممن ذُكرَ بآيات ربه فأعرض عنها
ونسي ما قدّمت يده﴾ من المعاصي والكفر، وسبب الإعراض عن آيات الله
بينه الله سبحانه في قوله بعد ذلك: ﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنةً أن
يفقهوه﴾. إنه سبحانه جعل على قلوب الظالمين المعرضين عن آياته أغشية
تغطي قلوبهم حتى لا يفهموا كلام الله ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ وجعل في آذانهم
ثقلًا يمنعها من سماع ما ينفعهم من الآيات وما فيها من الأمثال، جزاءً وفاقاً
لموقفهم المستهزي والمعرض عن دعوة الرسل عليهم السلام ﴿كلا
بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾^(٢) فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم، والله
لا يهدي القوم الفاسقين^(٣).

وتلك هي النتيجة ﴿وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً﴾^(٤)
فكان هذه الآية تبين سبب قول الله تعالى للنبي ﷺ في مطلع السورة ﴿فلعلك
باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾.

فتأمل كيف تدور آيات السورة في فلك موضوعها الأساسي الأول الذي
ذكره الله سبحانه في آياتها الأولى.

(١) الآية ٥٦ الكهف.

(٢) الآية ١٤ المطففين.

(٣) الآية ٥ الصف.

(٤) الآية ٥٧ الكهف.

ومن رحمته سبحانه بعباده أنه لا يعجل العقوبة للكافرين والمعرضين عن طاعته وعبادته، فهو سبحانه حلیم يُمهّل ولا يُهمّل، فلا يظن أولئك المجادلون بالباطل والمفتنون بسبب اتباعهم الشيطان أن الله سبحانه يتركهم دون عقاب وعذاب ﴿وربك الغفور ذو الرحمة، لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب، بل لهم موعد لن يجدوا من دونه مؤثلاً﴾^(١)، أي ملجأ يلجؤون إليه يحميهم من عذاب الله، وقد دلت آيات كثيرة على أن الله سبحانه لا يؤخر شيئاً عن وقته الذي عينه له ولا يقدمه عليه ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة، ولكن يؤخرهم إلى أجل مُّسمًّى، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾^(٢).

وقال هنا في سورة الكهف: ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا، وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾^(٣).

(١) الآية ٥٨ الكهف.

(٢) الآية ٦١ النحل.

(٣) الآية ٥٩ الكهف.

الفصل الرابع

قِصَّةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالرَّجُلِ الصَّالِحِ

- | | |
|---------------------------------|--------------------------|
| موقع القصة في سورة الكهف. | أدب ولطف. |
| فتنة العلم. | الجمولة الأولى. |
| القصة في كتب السنة الشريفة. | الجمولة الثانية. |
| رحلة العجائب - مجمع البحرين. | الجمولة الثالثة. |
| الحوت العجيب. | كشف الأسرار. |
| العبد الصالح. | تعقيب. |
| موسى عليه السلام أفضل من الخضر. | العمل بالإلهام غير جائز. |

القصة الثالثة قصة موسى عليه السلام والرجل الصالح

موقع القصة في سورة الكهف

ذكرت قصة موسى عليه السلام والرجل الصالح في القرآن الكريم مرة واحدة في سورة الكهف، ولموقعها في السورة فوائد وحكم، كشف العلامة الفخر الرازي في التفسير الكبير عن اثنتين منها فقال:

أما نفع هذه القصة في الرد على الكفار الذين افتخروا على فقراء المسلمين بكثرة الأموال والأنصار، فهو أن موسى عليه السلام مع كثرة علمه وعمله وعلو منصبه واستجماع موجبات الشرف التام في حقه ذهب إلى الخضر لطلب العلم وتواضع له، وذلك يدل على أن التواضع خير من التكبر.

وأما نفع هذه القصة في قصة أصحاب الكهف، فهو أن اليهود قالوا لكفار مكة: إن أخبركم محمد عن هذه القصة فهو نبي وإلا فلا. وهذا ليس بشيء، لأنه لا يلزم من كونه نبياً من عند الله تعالى أن يكون عالماً بجميع القصص والوقائع، كما أن كون موسى عليه السلام نبياً صادقاً لم يمنع من أمر الله إياه بأن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه، فظهر بما ذكرنا أن هذه القصة قصة مستقلة بنفسها ومع ذلك فهي نافعة في تقرير المقصود في القستين المتقدمتين^(١).

ولعل ما ذكره الفخر الرازي يبين لنا الحكمة من تهوين الله سبحانه

(١) انظر التفسير الكبير.

لشأن قصة أصحاب الكهف بالنسبة لعجائب قدرته، كما سبق ومراً معنا عند قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾.

فتنة العلم

وإضافة إلى ما ذكره الفخر الرازي أقول: إنَّ للقصة علاقةً بموضوع سورة الكهف الأساسي، وهو الاختبار والابتلاء وسبيل العصمة من الفتن وطرق النجاة منها، وفتنة العلم من الفتن الكبرى التي يتعرض لها أهل العلم من علماء ومتعلمين، وقد بين الله سبحانه في قصة موسى والرجل الصالح السبل المنجية من فتنة العلم ببيان الصفات الطيبة التي ينبغي أن يتصف بها العالم والمتعلم.

وتظهر فتنة العلم من جوانب متعددة:

فالعلم سبب من أسباب تحصيل القوة، وقد وضعت العلوم التجريبية في يد الإنسان المعاصر كثيراً من مصادر القوة والطاقة التي خلقها الله سبحانه، والأمم المتعلمة أقوى بكثير من الأمم الجاهلة والمتخلفة عن ركب العلم، والقوة تمكن الإنسان من الغلبة والسيطرة على غيره، وحب السيطرة من النوازع القوية الكامنة في نفس الإنسان، وهي سبب فتنة كثير من الناس، وقديماً ادَّعى فرعون لنفسه صفة الربوبية والألوهية بسبب قوته وكثرة جنوده قال تعالى: ﴿فَحْشُرْ فَنَادَى، فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾^(١) وحديثاً انتشر الكفر بالله سبحانه والإلحاد وإنكار وجود الخالق العظيم بين كثير من الناس، وخاصة في إبان الطفرة العلمية التي حدثت في العالم الغربي في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ومطلع القرن التاسع عشر، وظن بعض الناس أنهم بما توصلوا إليه من الكشوفات العلمية أصبحوا أقوياء، وأنهم ملكوا زمام الأمر في الأرض ويستطيعون الاستغناء عن الاعتقاد بوجود الخالق العظيم سبحانه وتعالى.

والعلم معرفة وإدراك يجعل الإنسان العالم يشعر بامتيازته على غيره من

(١) الآيتان ٢٣ - ٢٤ النزاعات.

الناس، فهو يعرف ما لا يعرفون ويدرك ما لا يدركون، والشعور بالتميز والتفوق سبب لفتنة كبرى تؤدي إلى وقوع الفرقة والاختلاف ونشوب الاقتتال بين الناس، وإن فكرة التفوق والامتياز أصل الفكرة النازية الألمانية التي أغرقت العالم في بحار من الدماء والنكبات والكوارث في الحربين العالميتين الأولى والثانية.

والعلم أيضاً سلاح ذو حدين خطير، يمكن أن يسخر للاحتيال والغش والخداع والتزوير وسلب حقوق الضعفاء والسُّدَج والبسطاء، كما هو الحال في العصر الحاضر، إذ تمكنت بعض المجتمعات البشرية في أوروبا وأمريكا بسبب تفوقها في بعض العلوم التجريبية أن تحقق مستويات عالية من الرفاهية والترف والسرف، لأنهم سخروا العلم لمآربهم الذاتية ومصالح أممهم وسرقة خيرات الأمم والشعوب التي يسمونها الشعوب النامية أو المتخلفة أو شعوب العالم الثالث، كما سخروا أيضاً العلم للتدمير والتخريب بما صنعوا من آلات الحرب والدمار مما هو معروف ومشهور.

كل هذا يبين لنا خطورة فتنة العلم، العلم البعيد عن الإيمان بالله، وفي قصة موسى والرجل الصالح بيان لأسباب النجاة من فتنته، تكشف بإذن الله تعالى لمن تدبر آيات هذه القصة وأمعن النظر فيها.

القصة في كتب السنة النبوية الشريفة

ذكرت قصة موسى والرجل الصالح في أوثق كتب السنة الشريفة ففي الصحيحين: البخاري ومسلم، وسنن الترمذي أن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نَوْفًا الْبَكَّالِي^(١) يزعم أن موسى عليه السلام صاحب بني إسرائيل ليس هو موسى صاحب الخضر، فقال: كذب عدو الله^(٢) سمعت أبي بن كعب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(١- ٢) تابعي من أهل دمشق فاضل عالم لا سيما بالإسرائيليات وكان ابن امرأة كعب الأحبار وقيل غير ذلك. ويجوز أن يكون ابن عباس اتهم نَوْفًا في صحة إسلامه أو قال ذلك في حال غضب لشدة إنكاره. انظر فتح الباري.

«قام موسى عليه السلام خطيباً في بني إسرائيل فسُئل: أيُّ الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى: أي رب كيف لي به؟ فقليل له: احمل حوتاً في مكتل، فحيث تفقد الحوت فهو ثمّ.

فانطلق وانطلق معه فتاه وهو يوشع بن نون، فحمل موسى عليه السلام حوتاً في مكتل، وانطلق هو وفتاه يمشيان حتى أتيا الصخرة فرقد موسى عليه السلام وفتاه، فاضطرب الحوت في المكتل حتى خرج من المكتل فسقط في البحر، وأمسك الله عنه جريّة الماء حتى كان مثل الطاق^(١)، فكان للحوت سرباً وكان لموسى وفتاه عجباً، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، ونسي صاحب موسى أن يخبره، فلما أصبح موسى عليه السلام قال لفتاه: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً.

قال: ولم ينصب حتى جاوز المكان الذي أمر به، قال: أرأيت إذ أرينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، واتخذ سبيله في البحر عجباً، قال موسى: ذلك ما كنا نبغي، فارتدا على آثارهما قصصاً، يقصان آثارهما حتى أتيا الصخرة، فرأى رجلاً مسجياً - مغطى - عليه بثوب، فسلم عليه موسى، فقال له الخضر: أنى بأرضك السلام؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: إنك على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه وأنا على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه.

قال له موسى عليه السلام: هل أتبعك على أن تعلمني مما علّمت رشداً.

قال: إنك لن تستطيع معي صبراً، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبيراً.

(١) فتحة في الماء.

قال: ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً، قال له الخضر: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً.
قال: نعم.

فانطلق الخضر وموسى يمشيان على ساحل البحر، فمرت بهما سفينة، فكلما هم أن يحملوهما، فعرفوا الخضر فحملوهما بغير نول - أجر - ، فعمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة فنزعه، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نولٍ عمدتَ إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها، لقد جئت شيئاً إمرأاً.
قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً.

قال: لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً.
ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذا غلام يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده فقتله، فقال موسى: أقتلت نفساً زاكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً.
قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً.
قال: وهذه أشد من الأولى.

قال: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عُذراً.

فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيّفوهما، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه، يقول: مائل، قال الخضر بيده هكذا^(١) فأقامه.

قال له موسى: قوم آتيناهم فلم يضيفونا ولم يطعمونا لو شئت لاتّخذت عليه أجراً.

(١) أي أشار بيده فأقامه.

قال: هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً.
قال رسول الله ﷺ: يرحم الله موسى لوددت أنه كان صَبَرَ حتى يقص علينا من أخبارهما.

وقال رسول الله ﷺ: كانت الأولى من موسى نسياناً قال: وجاء عصفور حتى وقع على حرف السفينة، ثم نقر في البحر، فقال له الخضر: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر^(١).

رحلة العجائب

مجمع البحرين

﴿وإذ قال موسى﴾ واذكر إذ قال موسى بن عمران عليه السلام كما مرّ معنا في الحديث الشريف، ﴿لفتاه﴾ لتابعه الذي كان يتبعه، وهو يوشع بن نون، كما مرّ معنا أيضاً في الحديث الشريف، وقوله تعالى ﴿لفتاه﴾ يدل على تكريم الإسلام للإنسان ولو كان خادماً أو عبداً، فينبغي أن يُنادى بالفاظ فيها معنى التكریم والاحترام، قال ﷺ: «لا يقولنّ أحدكم: عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقُل: غلامي وجاريتي وفتاتي وفتاتي»^(٢).

﴿لا أبرح﴾ لا أزال أسير ﴿حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ حتى أصل إلى مكان مجمع البحرين ﴿أو أمضي حقباً﴾^(٣) أو أسير زماناً طويلاً.

ويبدو أنهما لم يسيرا زماناً طويلاً، سارا بعض يوم فوصلا إلى مجمع البحرين، إلا أنهما لم يعرفا أن المكان الذي وصلا إليه وجلسا فيه يستريحان هو مجمع البحرين.

ولا بد أن يكون هذا المكان قريباً من المنطقة التي كان يقيم فيها

(١) اللفظ لمسلم.

(٢) صحيح مسلم.

(٣) الآية ٦٠.

موسى عليه السلام، والمنطقة هذه إما أن تكون في مصر أو في صحراء سيناء، وأقرب مكان يقع بين مصر وسيناء يلتقي فيه بحران، مكان في طرف البحر الأحمر من جهة الشمال، حيث يلتقي بحر العقبة وبحر السويس، الشعبان المتفرعان عن البحر الأحمر، والله سبحانه أعلم.

الحوت العجيب

جعل الله تعالى لموسى علامة يعرف بها المكان المطلوب، هي فقده للحوت، وهو السمكة المشوية التي كانا يحملانها لتكون طعاماً لهما.

ولما وصلا إلى مجمع البحرين، وجلسا إلى صخرة هناك يستريحان، غلب عليهما النوم والتعب فناما ﴿فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما﴾ نسي موسى عليه السلام تفقد الحوت، ونسي فتاه أن يخبره بفقده، إذ ردَّ الله تعالى بقدرته الحياة إلى الحوت الميت، فاضطرب في المكمل، ثم قفز إلى البحر ﴿فاتخذ سبيله في البحر سرباً﴾^(١).

وانتبه الفتى إلى فقد الحوت، ورآه وهو يقفز إلى البحر، ويشق طريقه داخل الماء، ورأى أيضاً كيف أمسك الله تعالى جرية الماء عن طريق الحوت حتى أصبح مثل النفق داخل الماء، ومع كل هذه الخوارق للعادات أنسى أن يذكر شيئاً من ذلك لموسى عليه السلام.

واستأنفا سيرهما بقية اليوم واللييلة، كما مرَّ في الحديث الشريف، حتى شعرا بالتعب والجوع قال موسى: ﴿آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾^(٢) أي تعباً ومشقة، عندئذ تذكر الفتى أمر الحوت العجيب ﴿قال أرايت إذ أؤينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت﴾ أي نسيت أن أذكر لك شأن الحوت العجيب، فمع أنه أمر لا يُنسى، فقد قدر الله تعالى له أن ينسى تنبيهاً على أن العلم لا يحصل إلا بتعليم الله تعالى وحفظه في قلب الإنسان

(١) الآية ٦١ من سورة الكهف.

(٢) الآية ٦٢ من سورة الكهف.

وذاكرته، فالتذكر والنسيان لا يخضعان لإرادة الإنسان، فما أكثر ما ينسى الإنسان أموراً هامة في حياته يتمنى أن يذكرها ولا ينساها وعلى العكس، ما أكثر ما يتذكر أموراً لا يريد تذكرها، بل يتمنى أن يطردها من ذاكرته وينساها، إن في الإنسان أسراراً لا تزال غيباً عن الإنسان.

وردّ الفتى سبب النسيان إلى الشيطان أدباً مع الله سبحانه ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، واتخذ سبيله في البحر عجباً﴾^(١) واتخذ الحوت طريقه في البحر اتخاذاً عجباً، إذ أصبح طريقه في الماء مثل الطاقة والنفق. ﴿قال ذلك ما كنا نبغ﴾ الذي كنا نطلب ﴿فارتدا﴾ رجعا ﴿على آثارهما قصصاً﴾^(٢) يتبعان آثار أقدامهما حتى وصلا إلى الصخرة.

العبد الصالح

﴿فوجدنا عبداً من عبادنا آتينا رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً﴾^(٣).

وتم اللقاء بين موسى عليه السلام والعبد الصالح، ومر معنا في الحديث الشريف كيف تمّ اللقاء وحال الرجل الصالح عند وصول موسى إليه.

وقد وصفت الآية الكريمة هذا الرجل بثلاث صفات: أولها: أنه عبد من عباد الله الصالحين، وصفه الله تعالى بصفة العبودية، وأضافه إلى ذاته المقدسة بهذه الصفة أيضاً ﴿فوجدنا عبداً من عبادنا﴾ وهذا تكريم كبير لهذا الرجل وتشريف عظيم، فقد عودنا الله تعالى في كتابه الكريم أنه إذا أراد تكريم عبد نسبته إلى ذاته المقدسة بصفة العبودية، انظر كيف كرم رسوله ﷺ بقوله عز وجل: ﴿وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان﴾^(٤)

(١) الآية ٦٣.

(٢) الآية ٦٤.

(٣) الآية ٦٥.

(٤) الآية ٤١ الأنفال.

وقوله أيضاً: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾^(١) وتأمل كيف كرم الصالحين بقوله تعالى: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً﴾^(٢).

هذا الرجل الصالح عبد من عباد الرحمن، واسمه الخضر، كما مر معنا في الحديث الشريف، وقد سُمي بهذا الاسم لأنه جلس على أرض مجدبة لا نبات فيها، فأنبتت واخضرت بقدرة الله سبحانه، تكريماً لهذا الرجل الصالح. تحيا بكم كل أرض تنزلون بها كأنكم في بلاد الله أمطار ففي صحيح البخاري وسنن الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سمي بذلك لأنه جلس على فروة بيضاء فاخضرت تحته».

ثانيها: ﴿آتيناه رحمة من عندنا﴾ هذه هي الصفة الثانية التي وصف الله سبحانه بها هذا الرجل الصالح.

وذهب جمهور العلماء إلى أن المراد من الرحمة، الوحي والنبوة، فالرجل في رأي جمهور العلماء: نبي، وقد تكرر بالقرآن الكريم إطلاق الرحمة على النبوة، كما في قوله تعالى: ﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم. أ هم يقسمون رحمة ربك. . .﴾^(٣) وقوله تعالى أيضاً: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين. فيها يفرق كل أمر حكيم. أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين. رحمة من ربك إنه هو السميع العليم﴾^(٤). وقوله عز وجل أيضاً: ﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك، فلا تكونن ظهيراً للكافرين﴾^(٥).

(١) الآية ١ الإسراء.

(٢) الآية ٦٣ الفرقان.

(٣) الآيتان ٣١ - ٣٢ الزخرف.

(٤) الآيات ٣ - ٦ الدخان.

(٥) الآية ٨٦ القصص.

ثالثها: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ وهذه الصفة الثالثة لهذا الرجل الصالح، وهذه الصفة تؤكد نبوته، لأن الله تعالى علّمه مباشرة بدون تعليم معلّم ولا إرشاد مرشد، فمعنى قوله تعالى: ﴿مَنْ لَدُنَّا﴾ أي من عندنا، ويدلّ تقديم ﴿مَنْ لَدُنَّا﴾ على ﴿عِلْمًا﴾ على اختصاص الله سبحانه بهذا العلم، كأنّه سبحانه قال: علمناه علماً يختص بنا، وهو علم الغيوب والأسرار الخفية لا يعلمها إلّا الله تعالى، وفي استعمال كلمة ﴿عَلَّمْنَاهُ﴾ بدل ﴿آتَيْنَاهُ﴾ إشارة إلى تعظيم شأن هذا العلم^(١).

موسى أفضل من الخضر

وسواء كان هذا الرجل الصالح نبياً أم ولياً، فموسى عليه السلام أفضل منه، لأنه نبي ورسول أنزل الله تعالى عليه التوراة وأسمعه جلّ وعلا كلامه ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي، فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾^(٢) وموسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل الذين ذكرهم الله بقوله الكريم: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ، وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظًا﴾^(٣) وله عند الله سبحانه وجاهة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى، فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾^(٤).

ولا يدلّ ذهاب موسى إلى الخضر ليتعلم منه على أن الخضر أفضل من موسى، فقد كان موسى عليه السلام يعلم علوماً لا يعلمها الخضر، كما مر معنا في الحديث الشريف عندما قال الخضر لموسى: إنك على علم من علم الله علّمكه الله، لا أعلمه، وأنا على علم من علم الله، علّمنيه الله، لا تعلمه.

(١) انظر روح المعاني.

(٢) الآية ١٤٤ الأعراف.

(٣) الآية ٧ الأحزاب.

(٤) الآية ٦٩ الأحزاب.

والخصوصية لا تقتضي الأفضلية كما هو مقرر عند العلماء وهذا يقطع الطريق على القائلين بأن الخضر أفضل من موسى، قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله: (وقع لبعض الجهلة أن الخضر أفضل من موسى، تمسكاً بهذه القصة، وهذا يتصور ممن قصر نظره على هذه القصة، ولم ينظر فيما خص الله به موسى عليه السلام من الرسالة وسماع كلام الله وإعطائه التوراة، وأن أنبياء بني إسرائيل كلهم داخلون تحت شريعته، ومخاطبون بحكم نبوته حتى عيسى... والخضر وإن كان نبياً، فليس برسول باتفاق، وغاية الخضر أن يكون كواحد من أنبياء بني إسرائيل، وموسى أفضلهم، وإن قلنا: إن الخضر ليس بنبي بل ولي، فالنبي أفضل من الولي، وهذا أمر مقطوع به عقلاً ونقلاً، والصائر إلى خلافه كافر، لأنه أمر معلوم من الشرع بالضرورة)^(١).

ورحلة موسى عليه السلام إلى الخضر في طلب العلم، دليل على فضله وسعة علمه، فكلما ازداد الإنسان علماً ازداد تعظيماً للعلم وحرصاً عليه، فالفضل في هذه الرحلة لموسى عليه السلام على الخضر ورحم الله القائل:

إن زارني فبفضله أو زرتَه فلفضله

فالفضل في الحالين له

أدب ولطف

قال موسى عليه السلام للرجل الصالح: ﴿هل أتبعك على أن تعلمن مما عُلِّمَتْ رُشْدًا؟﴾^(٢) وهذا أدب ولطف من نبي الله موسى عليه السلام، سن به سنناً عالية ورفيعة لطلاب العلم، منها:

١ - جعل نفسه تبعاً للخضر رغم تفضله عليه، كما سبق ذكره، فقال له: «هل أتبعك» فعلى طالب العلم أن يتواضع لمعلمه وأن يتابعه ليستفيد من

(١) انظر فتح الباري.

(٢) الآية ٦٦ الكهف.

علمه، وتقتضي المتابعة من طالب العلم التسليم لمعلمه وترك منازعته والاعتراض عليه.

٢ - وقوله: ﴿مِمَّا عَلَّمْتُ﴾ أي من بعض ما علمك الله سبحانه، مما يدل على شدة تواضع موسى عليه السلام، والتواضع من صفات الكمال، ألا ترى كيف أمر الله تعالى نبينا ﷺ أن يتواضع للمؤمنين، وهو لا شك أفضل منهم، ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾^(١) وهذا التواضع المأمور به ﷺ لعامة المؤمنين لا بد أن يكون لأهل العلم أكثر وأعظم، لأن الله سبحانه رفع أهل العلم بما خصهم من الفضل درجات ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾^(٢).

٣ - وقوله ﴿رَشْدًا﴾ أي علماً ذا رشد، ولا خير في علم لا إرشاد فيه ولا هداية، إن العلم الذي لا رشد فيه فتنة لصاحبه كما سبق بيانه في موضوع «فتنة العلم» فعلى المعلم واجب الإرشاد والهداية مع التعليم، وموسى عليه السلام ما طلب العلم للعلم، إنما طلبه ليزداد هداية ورشداً، وهذا يدل على كمال تواضعه وإخلاصه عليه السلام وعرف الرجل الصالح المكانة العالية لموسى عليه السلام، فقال له: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾^(٣) فالإنسان العالم يشق عليه أن يسكت إذا سمع أو رأى شيئاً يخالف علمه.

ثم استدرك الرجل معتذراً من موسى ومعللاً ﴿وكيف تصبر على ما لم تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾^(٤) أي كيف تصبر وأنت نبي ورسول على أمور منكورة في ظاهرها؟ لكن حب العلم حمل موسى عليه السلام على أن يقول للخضر ﴿قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾^(٥).

(١) الآية ٢١٥ الشعراء.

(٢) الآية ١١ المجادلة.

(٣) الآية ٦٧.

(٤) الآية ٦٨.

(٥) الآية ٦٩.

فواجب المتعلم أن يطيع المعلم ويتواضع له، وعلى المعلم أن يذكر للمتعلم كل ما يفيد إرشاده للخير، ولهذا أوصى الخضر موسى ﴿قال فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾^(١) أي لا تسألني عن شيء تشاهده من أفعالي حتى أبتدئك ببيانه.

وهكذا تم الاتفاق، وبدأ الانطلاق.

الرحلة الأولى

﴿فانطلقا﴾ أي موسى والخضر، وسارا على ساحل البحر، فمرت بهما سفينة، فطلبوا من أصحابها أن يحملوهما، وعرف أصحاب السفينة الخضر، فحملوهما بغير أجر، ﴿حتى إذا ركبا في السفينة خرقها﴾ أخذ الخضر فأساً وخرق به السفينة، ثم جعل في مكان الخرق وتدأ لمنع دخول الماء إلى السفينة، ﴿قال﴾ موسى ﴿أخرقتها لتغرق أهلها؟﴾ وهو استفهام للإنكار والاعتراض على فعل الخضر ﴿لقد جئت شيئاً إمرأ﴾^(٢) أي أتيت أمراً عظيماً، أمر الأمر، إذا عظم.

ذكر الخضر عندئذ موسى بما قاله من قبل ﴿قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً﴾^(٣) ولا يخفى ما في هذا التذكير من إنكار على عدم صبر موسى، ﴿قال﴾ موسى معتذراً: ﴿لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً﴾^(٤) أي: لا تحملني صعوبة ومشقة في اتباعك وصحبتك.

وهكذا انتهت الرحلة الأولى بعتاب من الخضر واعتذار من موسى عليهما السلام.

الرحلة الثانية

﴿فانطلقا﴾ يسيران على الساحل بعد أن تركا السفينة، ﴿حتى إذا لقيا

(١) الآية ٧٠.

(٢) الآية ٧١.

(٣) الآية ٧٢.

(٤) الآية ٧٣.

غلاماً ﴿لم يصل بعدُ إلى سن البلوغ، يلعب مع أمثاله من الغلمان، فأخذه الخضر ﴿فقتله﴾ فقال موسى معترضاً على ما فعل ﴿قال أقتلت نفساً زكية﴾ طاهرة من الذنوب ﴿بغير نفس﴾ أي بغير حق ﴿لقد جئت شيئاً نكراً﴾^(١) منكراً جداً.

ولا شك أن اعتراض موسى هذا أشد من اعتراضه الأول ﴿قال﴾ الخضر: ﴿ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾^(٢) وبالمقابل كان عتاب الخضر لموسى على اعتراضه هذه المرة أشد من سابقتها، فقد زاد هنا ﴿لك﴾ ليدل على زيادة العتاب والإنكار، فزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى.

(قال) موسى ﴿إن سألتك عن شيء بعدها﴾ بعد هذه المرة الثانية ﴿فلا تصاحبني قد بلغت من لدنِّي عذراً﴾^(٣) أي قد بلغت الغاية التي تعذر بسببها في فراقني، وكلام موسى عليه السلام يدل على أنه استحيا من الخضر فقال له هذا القول، وقد صحَّ أن نبينا ﷺ قال: «رحمة الله علينا وعلى موسى، لو صبر على صاحبه لرأى العجب، ولكن أخذته من صاحبه ذمامة» أي حياء.

وانتهت الجولة الثانية ببدء ظهور علامات الفراق.

الجولة الثالثة

﴿فانطلقا﴾ حتى وصلا إلى قرية ﴿حتى إذا أتيا أهل قرية﴾ وهي قرية كبيرة، ذكرت بعد ذلك بلفظ مدينة: ﴿وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة﴾.

وكانا في حاجة ماسة إلى الطعام، إذ بلغ منهما الجوع كل مبلغ، فطلبوا الطعام من أهل هذه المدينة ﴿فاستطعما أهلها﴾ وكان أهل هذه القرية على درجة كبيرة من البخل، ﴿فأبوا أن يضيفوهما﴾.

(١) الآية ٧٤.

(٢) الآية ٧٥.

(٣) الآية ٧٦.

والعجيب أن موسى عليه السلام، لما وصل إلى مَدْيَن بعد أن خرج من مصر فراراً، لم يطلب حينئذ الطعام من أهل مدين مع شدة جوعه، بل توجه بالدعاء إلى الله تعالى قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتُ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (١).

وقابل الخضر إساءة أهل القرية لهما بالإحسان والإصلاح ﴿فوجدنا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه﴾ فمسح الخضر بيده على الجدار، فعاد مستوياً قائماً بقدرته الله تعالى، كما سبق وتمر معنا في الحديث الشريف؛ «قال الخضر بيده هكذا فأقامه» فمعنى قوله: «قال الخضر بيده» أشار الخضر بيده، وهو تعبير بالقول عن الفعل. عندئذ ﴿قال﴾ موسى ﴿لو شئت لاتخذت عليه أجراً﴾ (٢).

ونعجب مرة ثانية من رغبة موسى أن يأخذ الخضر أجراً على إقامة الجدار، إذا تذكرنا أن موسى عليه السلام سقى لابنتي شعيب غنهما، ولم يسألهما أجراً رغم حاجته الشديدة إليه في ذلك الوقت ﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يُصْدرَ الرِّعاء، وأبونا شيخ كبير. فسقى لهما ثم تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ: رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتُ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٣).

ولعل الحامل الذي حمله على رغبته أن يأخذ الخضر أجراً موقف اللؤم والبخل الذي رآه عند أهل هذه القرية.

قرر الخضر الفراق بعد هذا الاعتراض الثالث الذي صدر عن موسى بأسلوب اقتراح قدّمه ورغبة أبداها ﴿قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً﴾.

كشف الأسرار

﴿قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه

(١) الآية ٢٤ القصص.

(٢) الآية ٧٧.

(٣) الآية ٢٣ - ٢٤.

صبراً^(١) ولم يقل: بما لم تصبر عليه، بل قال: بما لم تستطع عليه صبراً، أدباً مع موسى عليه السلام.

ثم شرع في كشف الأسرار فقال: ﴿أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر﴾ لأناس فقراء يحاولون العمل في البحر لتحصيل رزقهم ﴿فأردت أن أعييها﴾ لأن في طريقهم ملكاً ظالماً ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غير معينة﴾ غصباً^(٢).

أسس الخضر عليه السلام بعمله هذا قاعدة نفيسة من قواعد الفقه، وهي: يُختار أخف الضررين لدفع أكبرهما، فيتحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى، فهو لم يخرق السفينة ليغرق أهلها، إنما خرقها ليحدث ضرراً صغيراً يدفع به ضرراً كبيراً، وهو أخذ المملك الظالم للسفينة غصباً.

﴿وأما الغلام﴾ الذي قتله ﴿فكان أبواه مؤمنين﴾ وللمؤمن كرامة عند الله تعالى ﴿فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً﴾^(٣) فخشنا أن يكون هذا الولد سبباً لطغيان والديه بمجاوزتهما لحدود شرع الله وكفرهما بالله، بأن يحملهما حب ولدهما على متابعتة ومطاوعته في معاصيه وكفره، وسبق أن مر معنا كيف أن الأولاد فتنة كبيرة للآباء، وأن كثيراً من الآباء والأمهات يفتنون عن دينهم بسبب أولادهم. ﴿فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة﴾ أن يرزقهما الله بدله ولداً خيراً منه ديناً وأطهر قلباً وخلقاً، ﴿وأقرب رُحماً﴾^(٤) أكثر رحمة بوالديه وبراً بهما.

﴿وأما الجدار﴾ الذي أقامه، ﴿فكان لغلामين يتييمين في المدينة﴾ مات أبوهما وترك لهما مالاً تحت هذا الجدار، ﴿وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً﴾ وأراد الله سبحانه بسبب صلاح والدهما أن يحفظ لهما الكنز في المدينة.

(١) الآية ٧٨.

(٢) الآية ٧٩.

(٣) الآية ٨٠.

(٤) الآية ٨١.

كنزهما حتى يبلغا مبلغ الرجال، ولوسقط الجدار لأخذ أهل المدينة مال اليتيمين الضعيفين، وقد اشتهر أهل المدينة بشدة البخل واللؤم والطمع.

وهذا يدل على أن صلاح الآباء ينفع الله تعالى به الأبناء في الدنيا، كما حدث لهذين اليتيمين، وفي الآخرة كما في قوله عز وجل: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم، وما ألتناهم من عملهم من شيء، كل امرئ بما كسب رهين﴾^(١).

﴿فأراد ربك أن يبلغا أشدهما﴾ قوتهما ﴿ويستخرجا كنزهما﴾ من تحت الجدار ﴿رحمةً من ربك﴾ وهذا من رحمة الله بهما وفضله عليهما.

﴿وما فعلته عن أمري﴾ وكل ما صدر مني ما فعلته عن رأيي واجتهادي، إنما فعلته بأمر الله تعالى ﴿ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾^(٢).

وحذفت تاء، تستطع، للتخفيف، لأنها تكررت فناسب تخفيفها آخر مرة، أو لمناسبة ما خف عن موسى لما عرف حقيقة الحال^(٣).

تعقيب

إن قصة موسى والخضر عليهما السلام ترسم لأهل العلم طريق السلامة من فتنة العلم.

فالعلم أولاً يجب أن يقرب صاحبه من الله تعالى، فلا خير في علم لا يذكر بالله عز وجل ولا يدل عليه سبحانه.

وعلى العالم مهما حصّل من علوم ألاّ يغترّ بعلمه، فما يجهل من العلوم أكثر مما يعلم، وعليه ألا يتقطع عن طلب العلم والازدياد منه، فإذا

(١) الآية ٢١ الطور.

(٢) الآية ٨٢.

(٣) انظر روح المعاني.

انقطع عن طلب العلم وظن أن عنده من العلم ما يغنيه عن طلب المزيد، فهو جاهل، والعلماء الحقيقيون يحصنون علمهم بطلب المزيد، وإلا نقص علمهم واضمحل وانتهى بهم إلى الجهل.

ففي رحلة موسى عليه السلام إلى الخضر أسوة طيبة حسنة لكل عالم، وفي قوله تعالى لنبينا ﷺ: ﴿وقل رب زدني علماً﴾^(١) درس بليغ لكل عالم ومتعلم.

وعلى العالم أن يسخر علمه لينفع به الناس، يساعد به الضعفاء ويحميهم من ظلم الطغاة والمستبدين، ويعمل على حفظ حقوق اليتامى حتى يبلغوا ويشتد ساعدهم، كما فعل الخضر عليه السلام، فقد سخر ما آتاه الله من علم لمساعدة المساكين وحماية سفينتهم من الملك الظالم، وحماية الوالدين المؤمنين من شر ولدهما وعقوقه، وحفظ أموال اليتيمين وحمايتهم، فأين ما فعله الخضر عليه السلام مما تفعله الدول المتقدمة مع الشعوب الضعيفة الفقيرة في عصرنا الحاضر، إنهم يسخرون علمهم للتزوير والغش والاحتيال وامتصاص خيرات الأمم والشعوب الضعيفة.

العمل بالإلهام غير جائز

يدل قول الخضر: ﴿وما فعلته عن أمري﴾ على نبوة الخضر عليه السلام، فما فعله عندما خرق السفينة وقتل الغلام وأقام الجدار، كان بوحي من الله تعالى له وتشريعه، وهو تشريع خاص بالخضر لا يجوز العمل به في الشريعة الإسلامية إلاً بدليل ظاهر منها، كما أنه غير جائز في شريعة موسى عليه السلام بدليل معارضة موسى له.

وما أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن عطاء أنه قال: كتب نَجْدَةُ الحروري إلى ابن عباس يسأله عن قتل الصبيان؟ فكتب إليه ابن عباس: إن كنت الخضر تعرف الكافر من المؤمن فاقتلهم.

(١) الآية ١١٤ طه.

وقد قصد ابن عباس رضي الله عنه بهذا، كما قال السبكي رحمه الله، المحاجة والإحالة على ما لا يمكن، ليقطع طمع نجدة الحروري الخارجي عن الاحتجاج بقصة الخضر، وليس مقصوده رضي الله عنه أنه إن حصل ذلك يجوز القتل^(١).

ونقل في حاشية الشهاب عن السبكي أيضاً قوله: ما فعله الخضر من قتل الغلام لكونه طبع كافراً مخصوص به، لأنه أوحى إليه أن يعمل بحكم الباطن خلاف الظاهر، وإن علم من شرعنا أنه لا يجوز قتل صغير، لاسيما بين أبوين مؤمنين، ولو فرضنا أن الله أطلع بعض أوليائه كما أطلع الخضر عليه السلام لم يجز ذلك^(٢).

هذا هو الحق الذي لا يُعدل عنه إلى غيره، فالخضر عليه السلام نبي، وما فعله شرع خاص به لا يجوز لغيره أن يقلده فيه. وفي هذا رد على بعض الجهلة من المتصوفة الذين يقولون بجواز العمل بالكشف والإلهام، فلا يجوز العمل بكشف ولا إلهام إلا إذا وافق الكتاب والسنة، وحينئذ يكون العمل بمقتضى الكتاب والسنة لا بمقتضى الإلهام والكشف.

وقد نبهت إلى هذا في كتابي «العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد» وذكرت فيه قول أبي الحسن الشاذلي رحمه الله: إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة فتمسك بالكتاب والسنة، فالله سبحانه ضمن العصمة للنبي ولم يضمنها للولي.

ولقد أفاد العلامة الألوسي وأجاد في تفسيره روح المعاني، في الرد على القائلين بجواز العمل بالإلهام والاحتجاج به، ووصفهم بالشذوذ والإعثار، ثم أطنب في ذكر من منع العمل بالإلهام من الصوفية، فقال: (وممن صرح بأن الإلهام ليس بحجة من الصوفية الإمام الشعراني، قال: قد

(١) انظر روح المعاني.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين المسمى بالفتوحات الإلهية.

زلَّ في هذا الباب خلق كثير فضلوا وأضلوا، ولنا في ذلك مؤلف سميته «حد الحسام في عتق من أطلق إيجاب العمل بالإلهام».

وقد صرح الإمام الربانيّ مجدّد الألف الثاني في المكتوبات في مواضع عديدة بأن الإلهام لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً. ويعلم من ذلك أنه لا مخالفة بين الشريعة والحقيقة والظاهر والباطن.

وقال الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله: جميع الأولياء لا يستمدون إلا من كلام الله تعالى ورسوله ﷺ ولا يعملون إلا بظاهرهما.

وقال الجنيد رحمه الله: الطرق كلها مسدودة إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ. وقال أيضاً: «من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا العلم لأن علمنا مقيد بالكتاب والسنة»^(١).

وطرق الإنذار محصورة بالوحي، وقد ختم الوحي برسول الله ﷺ، وحديث من يقول: حدثني قلبي عن ربي، مردود عليه إذا تعارض مع الكتاب والسنة، وإذا لم يعارض الكتاب والسنة فالعمل بالكتاب والسنة لا بما حدثه قلبه عن ربه سبحانه وتعالى.

قال العلامة الشنقيطي رحمه الله:

(الذين يقولون بأن الخواص من الأولياء والصالحين لا حاجة بهم إلى أخذ الأحكام من النصوص الشرعية في الكتاب والسنة، لصفاء قلوبهم ونقاء نفوسهم، فتنجلي لهم الحقائق الإلهية فيعملون بمقتضاها، هذا زندقة وكفر، لأنه هدم لأحكام الدين)^(٢).

قال القرطبي: (الله سبحانه قد أجرى سنته وأنفذ كلمته بأن أحكامه لا تُعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه، وقد حصل العلم اليقين وإجماع السلف على ذلك، فمن ادعى أن هناك طريقاً آخر يعرف بها أمره

(١) انظر روح المعاني وكتاب العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد.

(٢) انظر أضواء البيان.

ونهيهِ غير الطرق التي جاءت بها الرسل، يستغني بها عن الرسول، فهو كافر يُقتل ولا يُستتاب، وهي دعوى تستلزم إثبات نبوة بعد نبينا عليه الصلاة والسلام، فمن قال: إنه يأخذ عن قلبه لأن الذي يقع فيه هو حكم الله، وأنه يعمل بمقتضاه من غير حاجة منه إلى كتاب وسنة، فقد أثبت لنفسه صفة النبوة، كما قال نبينا ﷺ: «إن روح القدس نفث في رُوعي» وبلغنا عن بعضهم أنه قال: لا آخذ عن الموتى وإنما آخذ عن الحي الذي لا يموت، وكذا قال آخر: أنا آخذ عن قلبي عن ربي، وكل ذلك كفر باتفاق أهل الشرائع^(١).

(١) نقل هذا عن القرطبي في تفسيره: ابن حجر العسقلاني في فتح الباري وأيده.

الفصل الخامس

قصة ذي القرنين

فتنة الحكم .
ذو القرنين ليس ملكاً من ملوك الفرس .
ولا الإسكندر المقدوني اليوناني .
هل ذو القرنين أحد ملوك اليمن الأولين ؟
السائلون عن ذي القرنين .
التمكين والأسباب .
الرحلة الأولى ، إلى مغرب الشمس .
الرحلة الثانية ، إلى مطلع الشمس .
الرحلة الثالثة ، إلى ما بين السدين .
(ما آتاني ربي خير) .
(فأعينوني بقوة) .
بناء السد .
(هذا رحمة من ربي) .
سؤالان هامين .
« ويل للعرب من شر قد اقترب »
يأجوج ومأجوج .

هل يأجوج ومأجوج محصورون وراء السد؟
(فتحت يأجوج ومأجوج).
تحقيق في حديث.
موقع السد.
التعقيب الأخير: أعين وقلوب.
تهكم وإنكار.
كلمات الله تعالى.

القصة الرابعة قصة ذي القرنين

فتنة الحكم

شهوة الحكم والتسلط كانت ولا تزال أعظم أسباب الفتن بين الناس، فقد جُبل الإنسان على حب التملك والتسلط، وتركزت في أعماق نفسه نزعة حب الشهرة والسمعة، وهذا جعل شهوة الحكم والتسلط في نفس الإنسان من أقوى الشهوات وقد واجه النبي ﷺ أصحابه بهذه الحقيقة، فقال: «إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة»^(١).

وإن قاريء التاريخ والمتأمل لأحداث الصراعات البشرية قديماً وحديثاً ليجد أن أكثرها حدث بسبب تلك النزعة الدفينة في أعماق النفس البشرية، نزعة التسلط والحكم، والشهرة والسمعة، فما أكثر الحروب التي نشبت بسبب هذه النزعة، وما أعظم البلايا والرزايا التي أصابت البشرية في مدى تاريخها الطويل بسبب شهوات الحكام المستبدين، عبيد الشهرة والسمعة وطلاب السلطة والحكم.

إن فتنة الحكم والتسلط كبيرة وخطيرة، لأنها تستند إلى جذور عميقة وراسخة في أعماق النفس البشرية، والحكام الذين ابتلوا بها، وخرجوا منها سالمين قليلون، أكثرهم صرعه الفتنة، وغلبت عليه شهوة التسلط والشهرة، وبهرته الأضواء المسلطة عليه، فشغل بنفسه عن مسؤوليته وأمته، ألا ترى أن الخلافة الراشدة بعد رسول الله ﷺ ثلاثون سنة فقط من عمر الإسلام الطويل

(١) أخرجه البخاري.

الممتد من زمن رسول الله ﷺ إلى قيام الساعة، قال رسول الله ﷺ: «الخلافة بعدي في أمتي ثلاثون، ثم ملك بعد ذلك»^(١).

ولا يعني هذا أن جميع حكام المسلمين بعد الخلفاء الراشدين لا خير فيهم ولا صلاح، فقد كان فيهم حكام صالحون أجرى الله على أيديهم خيراً كثيراً للإسلام والمسلمين، لكنهم لم يصلوا إلى القمة السامقة التي تبوأها الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم.

لقد كان ذو القرنين مثلاً طيباً للحاكم الصالح، الذي لم يُفْتَنَ بالحكم والسلطان، فلم ينشغل بما آتاه الله تعالى من قوة الملك وأبهة الحكم والتمكين في الأرض، عن أمته التي حكمها ورسالته التي حملها، إنه الحاكم الذي سخر حكمه وسلطانه لنشر دين الله وعبادته في الأرض وعمارتها بطاعة الله تعالى، ودَرءِ خطر المفسدين عنها بكل وسائل التمكين التي آتاه الله سبحانه إياها.

وهذا جعل بعض المفسرين يصفون ذا القرنين بصفة النبوة، لكن جمهور المفسرين على أنه كان حاكماً صالحاً، سخر الله تعالى له كثيراً من الأسباب، ويسر له سُبُل التنقل في الأرض والنظر في أحوال العباد، فاستثمر ذلك للدعوة والإرشاد وعمارة الأرض ودفع أهل الشر والفساد.

تري من يكون ذو القرنين؟ وما هويته؟ وما جنسه؟ وما عصره؟... أسئلة كثيرة ثارت حول شخصية ذي القرنين، لم يستطع الدارسون لتاريخ الأمم والمتخصصون في أخبار التاريخ أن يجدوا لها جواباً شافياً كافياً، وما خرجوا إلا بأخبار متعارضة وأقوال متناقضة لا تروي غليلاً ولا تشفي غليلاً.

ذو القرنين ليس ملكاً من ملوك الفرس

ذهب بعض الباحثين إلى أن ذا القرنين أحد ملوك الفرس القدماء، وقد تحمَّس لهذا الرأي عالمان هنديان معاصران، هما: شبلي النعماني، وأبو

(١) رواه أحمد والترمذي.

الكلام آزاد، إلا أنهما اختلفا في تحديد اسمه، فذهب شبلي النعماني إلى أنه دارا الكبير ملك الفرس، الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، أما أبو الكلام آزاد فقد رجّح كون ذي القرنين كورش ملك الفرس في القرن السادس قبل الميلاد، وهو الذي قوّض مملكة بابل، وأذن لليهود المسيبين فيها بالعودة إلى فلسطين.

لكن المدوّن عن ملوك الفرس أنهم كانوا يدينون بالديانة المجوسية، التي تقوم على عقيدة المثنوية، والتي تقول بوجود إلهين: إله الخير وإله الشر، أو إله النور وإله الظلمة، كما تقوم على عبادة النار وتقديسها.

ولهذا حاول هذان الدارسان للدفاع عن رأيهما إثبات أن الزرادشتية^(١) التي كان يدين بها كل من الملكين تقول بوحدة الإله، وتأمّر بالخير وتدين بالآخرة، كما استندا فيما توصلا إليه إلى ما ورد في سفر نبوءة دانيال من أسفار العهد القديم^(٢).

لكن آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن ذي القرنين صرّحت بأن ملك ذي القرنين امتد إلى أقصى حدود المغرب، قال تعالى: ﴿فَاتَّبَعَ سِبْأً، حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ أي منتهى الأرض من جهة المغرب، بحيث لا يمكن لأحد مجاوزته.

ووقف كما هو الظاهر على حافة البحر المحيط الغربي الأطلسي - وفيه الجزائر المسماة بالخالدات^(٣).

بينما لم يتجاوز سلطان ملوك الفرس من جهة الغرب حدود قارة آسيا إلى إفريقيا أو إلى أوروبا.

(١) نسبة إلى زردشت، وهي أصل المجوسية، زعم بعضهم أنه نبي. وزعموا أنه كان يقول: النور والظلمة أصلان متضادان هما مبدأ موجودات العالم، وأن مبدعهما واحد لا شريك له، وهما يتغالبان حتى يغلب النور الظلمة. لكن التعارض بين ما نسب إليه من أقوال وعده من الأنبياء عليهم السلام واضح ظاهر.

(٢) انظر التفسير الحديث لدروزة.

(٣) روح المعاني.

وسياتي معنا أنه لا يوجد في التوراة التي يتداولها اليهود في العصر الحاضر أي ذكر صريح لذي قرنين، فيها فقط كلمات غامضة تشير إلى الإسكندر ملك اليونان، دون أن تصرح بأنه ذو القرنين.

ولا الإسكندر المقدوني اليوناني

وذهب كثير من المؤرخين والمفسرين إلى أن ذا القرنين هو الإسكندر المقدوني اليوناني المتوفى سنة ٣٢٣ ق م، وليس لهم دليل على صحة قولهم هذا سوى شهرة الإسكندر عند المؤرخين، وما عرف عنه من قوة سلطانه وامتداد ملكه، وكثرة الممالك والأمم التي دانت له وخضعت لحكمه.

والمشهور من شأنه أنه كان متصفاً بصفات خبيثة، تتنافى مع الصفات الطيبة الكريمة التي وُصف بها ذو القرنين في القرآن الكريم، فقد كان الإسكندر تلميذاً للفيلسوف اليوناني المشهور أرسطو، الذي كان يقول بقدّم العالم، كما اشتهر الإسكندر بأنه كان وثنياً محباً للشهوات مسرفاً في الملذات وسفك الدماء.

ومهما حاول أصحاب هذا الرأي، أن يدفعوا عن الإسكندر هذه الصفات، فلن يستطيعوا بسبب ذبوعها وشهرتها عند كثير من المؤرخين. وقد اعترف فريد وجدي في ما كتبه عن الإسكندر في دائرة معارفه بثبوت هذه الصفات للإسكندر، وذكر أن الإسكندر فسد قلبه في آخر حياته، حتى دعا إلى عبادته والسجود أمامه، وأنه كان يعبد كل إله مزعوم يصادفه، ويقرب له القرابين والضحايا^(١).

وحاول فريد وجدي أن يوفق بين هذه الصفات المذمومة التي كانت للإسكندر وبين الصفات الطيبة التي وصف بها القرآن الكريم ذا القرنين، لأن فريد وجدي من القائلين بأن الإسكندر هو ذو القرنين.

فابتعد بهذه المحاولة عن الحقيقة وتنكب الجادة، عندما زعم أن ما في

(١) انظر دائرة معارف القرن العشرين مادة (أسك).

القرآن الكريم عن ذي القرنين لا يدل على صلاحه وإيمانه، وزعم أن قول ذي القرنين ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جِزَاءُ الْحَسَنَى﴾^(١) كما حكاها القرآن الكريم عنه، لا يدل على إيمان معين بدين من الأديان، بل المراد من آمن وعمل صالحاً على الإجمال^(٢).

وإن الإنسان ليقضي عجباً من هذا الذي ذهب إليه فريد وجدي غفر الله له، كيف غاب عن عقله أن الإيمان والعمل الصالح إذا ذكرا في القرآن الكريم انصرفا إلى الإيمان بالله سبحانه الذي أنزل القرآن الكريم لهداية الناس إليه والإيمان به سبحانه وتعالى، وأن العمل الصالح المقرون مع الإيمان هو العمل المطابق لمقتضى الإيمان بالله تعالى، ولو كان ذو القرنين في قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ لا يقصد الإيمان بالله تعالى، ولا العمل الصالح الذي يرضى الله عنه، فلماذا ذكره القرآن الكريم حكاية عن ذي القرنين في سياق إقراره عليه؟!

إن مما يؤكد إيمان ذي القرنين بالله تعالى وحده الإيمان الصحيح قوله قبل ذلك: ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا﴾^(٣) ففيه دلالة قاطعة صريحة على أن الرجل كان مؤمناً بالله تعالى وباليوم الآخر أيضاً، وبما في هذا اليوم من ثواب وعقاب.

إن ما جاء في آيات سورة الكهف عن ذي القرنين يتنافى مع ما اشتهر به الإسكندر المقدوني من طغيان وظلم وكفر، وامتداد ملك الإسكندر وقوة سلطانه لا يدلان على أنه ذو القرنين الحاكم الصالح المؤمن بالله سبحانه، والداعية إلى عبادة الله تعالى، والذي سخر كل ملكه وسلطانه لنشر عبادة الله تعالى في الأرض ودرء فساد المفسدين.

ولا يبعد في العقل أن يكون في رجال العصور القديمة رجل بلغ ملكه

(١) الآية ٨٨.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) الآية ٨٧.

قرني الدنيا دون أن يكون له ذكر في التاريخ، ثمة عصور قديمة لم يتمكن المؤرخون من استطلاع أخبارها والوقوف على أحوال الإنسان فيها، ولا زالت هذه العصور تسمى في مصطلحات المؤرخين عصور ما قبل التاريخ، أي ما قبل التاريخ المعروف، وعدم تمكن المؤرخين من معرفتها لا يعني عدم حدوثها، فما يجهره الإنسان أكثر بكثير مما يعلمه.

وصدق الله تعالى القائل: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ: قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ، وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ، لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١).

فتاريخ الوجود البشري على هذه الأرض عميق، وشجرته ممتدة الجذور كثيراً في أعماق الزمن، وثمة أمم وقرون كثيرة عاشت على هذه الأرض وماتت وأرسل الله تعالى لها رسلاً، ولا نعلم عنها شيئاً، ولم يستطع المؤرخون والباحثون عن أخبار الماضين أن يقفوا لها على أثر أو يجدوا لها خبراً ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحْسِنُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً﴾^(٢).

هل ذو القرنين أحد ملوك اليمن الأولين؟

لليمن حضارة قديمة وعريقة، ظهرت فيه المجتمعات البشرية قبل ظهورها في كثير من بقاع الأرض، وخرجت منه كثير من الشعوب والقبائل التي استوطنت بلاد الرافدين وشواطئ البحر الأبيض المتوسط وضياف نهر النيل، فقد كان مخزناً للأمم والشعوب، وقامت على أرضه حضارات قديمة لا زالت بعض آثارها قائمة فيه.

وقد ذهب بعض المؤرخين والمفسرين إلى أن ذا القرنين أحد ملوك اليمن الحميريين القدماء، وأنه كان معاصراً لنبي الله إبراهيم عليه السلام. وأنه اجتمع به في مكة المكرمة ودعا له إبراهيم عليه السلام.

(١) الآية ٩ إبراهيم.

(٢) الآية ٩٨ مريم.

ولعلَّ هذا القول أقرب إلى الحقيقة، لأن الأذواء كانوا من اليمن كذي منار، وذو نواس، وذو رُعين، وذو يزن وذو جدن.

ويذكر المفسرون أن ذا القرنين هو الذي افتخر به بعد ذلك تُبَّع اليماني عندما قال :

قد كان ذو القرنين جدي مسلماً ملكاً علا في الأرض غير مُفْنَد بلغ المشارق والمغارب يتتغي أسباب ملك من حكيم مرشد فرأى مغيب الشمس عند غروبها في عين ذي خلب وثأط حرمد^(١)

وتُبَّع الذي نُسب إليه هذا الشعر، هو تبع الأوسط، واسمه أسعد أبو كرب اليماني، وهو مشهور ومعروف عند المؤرخين والمفسرين، فقد ذكر في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أهم خير أم قوم تُبَّع والذين من قبلهم، أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين﴾^(٢) وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود. وعاد وفرعون وإخوان لوط. وأصحاب الأيكة وقوم تُبَّع، كل كذب الرسل فحق وعيد﴾^(٣).

وكان تُبَّع هذا مؤمناً، ولهذا ذمَّ الله سبحانه قومه ولم يذمه، وروي عن النبي ﷺ أنه نهى عن سبه، روى ابن أبي حاتم من طريق سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا تُبَّعاً فإنه قد كان أسلم»^(٤).

ولعلَّ اليهود عرفوا شأن ذي القرنين بواسطة تُبَّع، فقد ذكر المؤرخون أن تُبَّعاً هذا خرج من اليمن واستولى على كثير من البلاد. وأنه مرَّ بالمدينة المنورة، واستصحب من يهود المدينة حَبْرَيْن كانا قد نصحاها وأخبراه أنه لا سبيل له على هذه البلدة، فإنَّها مُهاجر نبي يكون في آخر الزمان، وأنَّه طاف بالكعبة وعظمها وكساها الملاء والوصائل والجِبر، ولما رجع إلى اليمن دعا

(١) الخلب: الطين، والثأط: الحمأة، والحرمد: الأسود.

(٢) الآية ٣٧ الدخان.

(٣) الآية ١٢ - ١٤ ق.

(٤) أخرجه أيضاً أحمد والطبراني.

أهلها إلى التهود على دين موسى عليه السلام، فاستجابوا له، ولكنهم بعد موته عادوا إلى الوثنية التي كانوا عليها، ولهذا ذمهم الله تعالى في القرآن الكريم ولم يذمه^(١).

فذو القرنين من ملوك حمير القدماء، وزمانه متقدم على زمن تُبَّع أسعد أبو كريب الحميري بكثير، فقد عاش تُبَّع بعد عصر موسى عليه السلام، بينما عاش ذو القرنين في عصر إبراهيم عليه السلام، وذكر المفسرون أنه اجتمع معه في مكة، وأن إبراهيم دعا له وأوصاه ببعض الوصايا، ولعل الله سبحانه قد سخر ما سخر له من الأسباب ببركة دعاء الخليل له عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام^(٢) والله سبحانه وتعالى أعلم.

السائلون عن ذي القرنين

كان السؤال عن ذي القرنين لرسول الله ﷺ سؤال امتحان واختبار، كما مرَّ معنا في سبب نزول سورة الكهف، والسائلون هم كفار قريش بتلقين من يهود المدينة، فلا بدَّ أن يكون لدى السائلين بعض المعرفة عن ذي القرنين، إذ لا يعقل أن يسألوا النبي ﷺ سؤال الامتحان والاختبار ولا علم لهم بالمسؤول عنه.

وسبق أن ذكرت أن اليهود يمكن أن يكونوا قد علموا بشأن ذي القرنين من طريق علاقتهم بأحد تبابعة اليمن الذي تأثر ببعض أحبارهم واعتنق اليهودية وعمل على نشرها في ربوع اليمن، ويمكن أيضاً أن يكون ذو القرنين قد ذكر في التوراة التي كانت بين أيديهم في ذلك العصر، أما التوراة التي يتداولها اليهود في العصر الحاضر، فلا يوجد فيها أي ذكر لذي القرنين، فيها فقط كلمات غامضة تشير إلى الإسكندر ملك اليونان دون أن تصرح بأنه ذو القرنين، ففي سفر دانيال أن ملك اليونان هو التيس العافي والقرن العظيم

(١) انظر تفسير ابن كثير لسورة الدخان.

(٢) انظر روح المعاني.

الذي بين عينيه، وهو الملك الأول أي (الإسكندر)^(١).

ولا ثقة بأخبار التوراة بسبب ما طرأ عليها من تغيير وتبديل خلال التاريخ الطويل الذي مرَّ عليها. فلم يهَيء لها الله سبحانه ما هَيء للقرآن الكريم من أسباب الحفظ، أكد هذه الحقيقة كثير من الدارسين لأخبار التوراة، ومنهم الباحث الفرنسي موريس بوكاي بعد أن قام بدراسة موضوعية لكل من القرآن الكريم والتوراة والإنجيل في ضوء المعارف الحديثة، وحرر نتيجة دراسته تلك في كتابه المشهور «دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة»، وقال في خاتمة الكتاب: (لا يجب النظر إلى كتب التوراة بزخرفتها بدعياً بمميزات نريد أن تتميز بها، وإنما بأن ندرس موضوعاً ما هي عليه، وذلك لا يتضمن معرفة بالنصوص، بل يتضمن أيضاً معرفة بتاريخ النصوص إن معرفة تاريخ النصوص تسمح في الواقع بتكوين فكرة عن الظروف التي قادت إلى التعديلات النصية عبر القرون، وإلى التكوين البطيء لمجموعها كما نملكه اليوم بأجزاء متعددة محذوفة وأخرى مضافة).

التمكين والأسباب

ولنعد بعد هذه الجولة مع المؤرخين والمنقبين عن آثار الغابرين إلى رحاب الآيات الكريمة في سورة الكهف، لنرى من خلالها الصورة الكريمة الوضيئة لذي القرنين، الحاكم الصالح الذي ابتلاه الله بالحكم والسلطان، فما فتن به ولا تكبر ولا تجبر، بل تواضع لله تعالى وشكر.

أنعم الله تعالى على ذي القرنين بنعمتين كبيرتين:

أولهما: التمكين في الأرض ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي جعلنا له قدرة ومكنة على التصرف في الأرض، فله أن يتصرف فيها كما يشاء.

ثانيهما: ﴿وآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾^(٢) أي أعطيناه كل ما يتوصل به

(١) انظر دائرة المعارف لبطرس البستاني ٨ - ٤١٢ دار المعرفة.

(٢) الآية ٨٤.

إلى المقصود من علم وقدرة وآلة، ويبدو أن الأسباب التي من الله تعالى بها على ذي القرنين، لم تكن أسباباً عادية مألوفة للناس في عصره، فالإنجازات التي قام بها والأعمال العظيمة التي نفذها تؤكد ذلك، فقد كانت أسباباً خارقة لنواميس البشر وقدراتهم في ذلك العصر، فهي من قبيل الكرامات، أكرمه الله تعالى بها، ولهذا جاء الإخبار عنها بصيغة التعظيم، تعظيم المنعم وتعظيم النعمة، ﴿إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً﴾.

واستثمر ذو القرنين نعمة التمكين في الأرض، واستعان بالأسباب التي آتاه الله إياها، فقام بثلاث رحلات في الأرض، رحلات كبيرة وبعيدة، تدل على أن الأسباب التي أعطاها لم تكن أسباباً عادية.

الرحلة الأولى

إلى مغرب الشمس

اتجه ذو القرنين في رحلته الأولى إلى مغرب الشمس، وأراد أن يصل إلى نهاية الأرض المعروفة للناس في عصره من جهة الغرب، فسار مع جنوده مستعيناً بالأسباب التي سخرها الله تعالى له ﴿فأتبع سبباً﴾^(١) حتى إذا بلغ مغرب الشمس حتى وصل إلى منتهى الأرض من جهة الغرب، ووقف على ساحل المحيط الأطلسي، وكان الناس يظنون أنه نهاية الأرض من جهة الغرب، ولا ندري أي طريق سلك نحو الغرب، هل كان عن طريق أوروبا أو عن طريق شمال إفريقيا، والأرجح أنه كان من جهة الشمال الإفريقي، لأنه أقرب إلى مواطن الحضارات القديمة في مصر واليمن وبلاد ما بين الرافدين.

ونظر ذو القرنين إلى الشمس، وهي تغيب وراء الأفق الغربي في البحر المحيط، وأشعتها الحمراء عند الغروب تنعكس على صفحة المياه الداكنة الزرقاء، فرآها كأنها تغيب في عين ماء حمئة، أي ذات حمأة، وهو الطين والتراب، ولهذا جاء اللفظ القرآني متناسباً تماماً مع ما رأى ووجد، ﴿وجدناها

(١) الآية ٨٥.

تغرب في عين حمئة ﴿١﴾ أي رآها تغرب في عين حمئة.

ووجد في تلك البلاد قوماً كافرين، فخيرَهم الله عز وجل بين أن يقتلهم أو يمنَّ عليهم ﴿٢﴾ قلنا يا ذا القرنين إمَّا أن تعذَّب، وإمَّا أن تتخذَ فيهم حُسْنًا ﴿٣﴾.

واستدل بهذه الآية القائلون بنبوة ذي القرنين، فظاهر الآية أن الله سبحانه خاطبه بواسطة الوحي، وقد يكون خطاب الله تعالى له بواسطة نبي كان معه، كما كان الحال في بني إسرائيل، إذ كانت تسوسهم ملوكهم بما يوحي الله تعالى إلى أنبيائهم

واختار ذو القرنين أن يمن عليهم أولاً، فيدعوهم إلى الإيمان بالله تعالى وعبادته، فمن رفض عذَّبه بالقتل، ومن استجاب أكرمه وأحسن إليه ﴿٤﴾ قال أمَّا من ظلم فسوف نعذبه ثم يُردُّ إلى ربه فيعذبه عذاباً نُكرًا. وأمَّا من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى، وسنقول له من أمرنا يسراً ﴿٥﴾.

وهكذا انتهت الرحلة الأولى بهذه الدعوة الكريمة إلى الله سبحانه وتعالى.

الرحلة الثانية

إلى مطلع الشمس

ثم سار متوجهاً من مغرب الشمس إلى مشرقها، مستعيناً كما قدمنا بالأسباب التي يسرها الله تعالى له، ﴿٦﴾ ثم أَتْبَعَ سَبِيلًا ﴿٧﴾ حتى إذا بلغ مطلع الشمس ﴿٨﴾ أي آخر الأرض المعروفة للناس في ذلك العصر من جهة الشرق، وهي البلاد الواقعة أقصى القارة الآسيوية من جهة الشرق والمطلّة على المحيط الهادي، ولعلها بلاد الصين أو ما يجاورها من البلاد شمالاً وجنوباً،

(١) الآية ٨٦.

(٢) الآية ٨٧ - ٨٨.

(٣) الآية ٨٩.

ووجد هناك أقواماً يعيشون حياة بدائية بعيدة عن مظاهر التمدن والتحضّر، حتى إنهم ما كانوا يعرفون كيفية اتخاذ المساكن والبيوت، يأوون إلى أسراب وكهوف في الجبال وباطن الأرض، ويبدو أنهم كانوا أيضاً لا يعرفون اتخاذ الملابس، يعيشون عراة لا يسترون أجسادهم بشيء، وقد وصفهم الله سبحانه فقال: ﴿حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾^(١).

ولا يعقل أن يتركهم ذو القرنين على هذه الحالة البدائية التي تتنافى مع كرامة الإنسان، وهو الحاكم الصالح الذي سخر حكمه وسلطانه لخدمة الأمم والشعوب التي استرعاه الله تعالى أمرها، ومدّ سلطانه عليها، لا بدّ بعد أن يدعوهم إلى الإيمان بالله سبحانه وطاعته كما فعل في بلاد المغرب أن يرشدهم إلى اتخاذ الملابس، ويعلمهم كيفية بناء المساكن، مستفيداً مما آتاه الله من العلوم والآلات بما سخر له من الأسباب، وقد سكّنت الآيات الكريمة عن بيان ذلك اكتفاءً بالإشارة إلى الأعمال الكبيرة العظيمة التي قام بها ذو القرنين، فليس في الآيات إحاطة بكل أخبار ذي القرنين بل جاءت الآيات تذكر جزءاً من أخباره وأعماله ﴿ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً﴾ و (من) تبعيضية، أي سأذكر لكم نبأ مذكوراً من أنبائه.

وقد آتاه الله سبحانه قدرات هائلة وإمكانات كبيرة استثمارها كلها في مساعدة الشعوب الضعيفة الفقيرة، ولهذا جاء التعليق على ما آتاه الله تعالى، وهو لا يزال في أقصى الشرق بين هذه الشعوب الضعيفة الفقيرة: ﴿كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً﴾^(٢) وهذا يفيد تعظيم ما أعطى الله سبحانه لذي القرنين، فهو وراء ما وُصف بكثير، مما لا يحيط به إلّا علم اللطيف الخبير، ويشير إلى المساعدات الكبيرة التي قدمها لهذه الشعوب الفقيرة.

(١) الآية ٩٠.

(٢) الآية ٩١.

الرحلة الثالثة إلى ما بين السدين

وبعد أن قدّم ذو القرنين لهذه الشعوب البدائية الفقيرة ما قدم من مساعدات وإرشادات رحل عنها وسلك طريقاً ثالثاً، ويبدو أنه طريق معترض بين المشرق والمغرب، قال الله تعالى ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبِيلاً﴾^(١) «حتى إذا بلغ بين السدين» أي الجبلين، والسد: كما في القاموس، الجبل والحاجز لأنه يسدُّ فجاً من الأرض.

والظاهر أن المراد من السدين في الآية الكريمة، سلسلتان كبيرتان من الجبال الشاهقة الارتفاع، وهاتان السلسلتان من الجبال تحجزان وراءهما صحارى شاسعة مترامية الأطراف، يعيش فيها أقوام بداءة قساة أشداء على الصيد والرعي، ويتنقلون في هذه الصحارى بحثاً عن أسباب الرزق لهم ولماشيتهم.

بينما تمتد أمام هاتين السلسلتين الجبليتين من الجهة الثانية سهول زراعية ذات بيئة صالحة للزراعة وال عمران والاستقرار، ولا بدّ أن يكون سكان هذه السهول الزراعية أكثر تحضراً واستقراراً من جيّرائهم البدو الرحّل سكان الصحراء، وكان هؤلاء البدو يندفعون من بين هذه الجبال إلى السهول الزراعية كلما ضاقت بهم سبل العيش بسبب جذب الصحراء وقسوة المناخ، فيفتكون بأصحابها وينشرون في هذه المناطق العمرانية والزراعية الخراب والدمار والفساد.

وعندما وصل إليهم ذو القرنين شكوا إليه ما يلقون من هذه القبائل البدوية المتوحشة من فساد وخراب في بيوتهم وزروعهم ومحاصيلهم. «قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض» وعرضوا عليه أموالاً ليقم لهم سداً بين هاتين السلسلتين الكبيرتين من الجبال يمنع عنهم عدوان

(١) الآية ٩٢.

هؤلاء المفسدين وشرهم ﴿فهل نجعل لك خَرْجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً﴾^(١).

ولا بد أن يكون هؤلاء الذين طلبوا من ذي القرنين بناء سد لهم، قد عرفوا قدرته على ذلك، ورأوا ما معه من وسائل وآلات وإمكانات تمكنه من بناء السد، ولولا ذلك ما طلبوا منه أن يبني لهم السد، وما عرضوا عليه أموالهم.

وسبق أن بيّنت أن الله عز وجل أعطى ذا القرنين كل وسائل القوة والتمكين في الأرض كما أخبر عن ذلك في قوله تعالى: ﴿إنا مكّنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً﴾ كما بيّنت أن في قوله تعالى: ﴿كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً﴾ دليلاً على تعظيم ما آتاه الله تعالى، وأن الوسائل والأسباب التي أنعم الله تعالى بها على ذي القرنين وراء أي وصف، فلا يحيط بها إلاّ العليم الخبير.

(ما آتاني ربي خير)

فماذا كان موقف ذي القرنين من هذا العرض المغري الذي عرضه القوم عليه ليبنى لهم السد؟ هل استغل الموقف واستثمر حاجتهم لمساعدته فأخذ منهم ما استطاع من أموالهم، ونهب ما أمكنه من ثمرات تعبهم وعملهم، كما تفعله في العصر الحاضر الدول الكبرى القوية مع شعوب الدول الضعيفة الفقيرة، هل شرط ذو القرنين عليهم أن يستغل مشروع السد بعد بنائه لفائدته عدداً من السنين، وهل أرهقهم بالديون ذات الفوائد الربوية المركبة حتى أصبح مشروع السد عبئاً ثقيلاً عليهم؟

كان ذو القرنين حاكماً مؤمناً صالحاً يسعى لخير شعوب الأرض وسعادتهم، يستعين لتحقيق هذا الهدف النبيل بما آتاه الله تعالى من علوم وآلات وقدرات، ويعمل ليدفع عن الناس شرور المفسدين وعدوان المعتدين، ﴿قال: ما مكّني فيه ربي خير﴾ مما تبذلونه من أموالكم.

(١) الآية ٩٤.

أين من يقول مثل هذه الكلمة في العصر الحاضر؟

أين المتعطفون عن خيرات الشعوب الضعيفة النامية؟ أين القائلون: ما عندنا يكفيننا وما آتانا ربنا يغنيننا؟ أين الذين لا يستغلون قوتهم وعلمهم في سلب خيرات الضعفاء؟ وإذا تعففوا أحياناً، فإنهم يأخذون مقابل ما قدموا من مساعدات ومعونات عقائد هؤلاء الضعفاء وأخلاقهم وتراثهم، يمنعون عنهم المساعدة حتى يكفروا بدينهم ويتخلَّوا عن أخلاقهم وتراثهم ولغتهم، وما أخبار التنصير واستغلال الكنيسة وكهنتها للمساعدات التي يقدمونها للضعفاء، والمنكوبين لتنصيرهم عنا ببعيد.

(فأعينوني بقوة)

وكان ذو القرنين إلى جانب عفته وحكمته وعلمه متواضعاً ولهذا قال: ﴿فأعينوني بقوة﴾ إن وراء هذه الكلمات نفساً راضية متواضعة كريمة، لم تفتنها القوة والسلطة، إنها النفس التي نجحت في أعظم ما يُختبر به الإنسان ويُفتن، ﴿كلا إن الإنسان ليطغى. أنْ رآه استغنى﴾^(١) وما أكثر الطغاة والمتجبرين الذين أعمتهم السلطة والقوة عن رؤية حقيقتهم ومعرفة حجمهم!!!.

الإنسان مخلوق ضعيف محدود، فمهما ملك من وسائل الغنى والسلطة والقوة، فهو محتاج إلى مساعدة الآخرين، فقير إلى معونتهم.

لو عقل الظالمون والمتجبرون هذه الحقيقة ما ظلموا ولا تجبروا.

بناء السد

وشرع ذو القرنين في بناء السد، كما وعدهم بقوله: ﴿أجعل بينكم وبينهم ردماً﴾^(٢)، واستفاد من مساعدة القوم له، فقد قدَّموا له القوة العاملة التي حفرت الأرض وهيأت مواد البناء، وأما ذو القرنين فقد أشرف على تنفيذ البناء، وباشِر بنفسه رفع البناء ﴿آتوني زُبَرَ الحديد﴾ أي قطع الحديد،

(١) الآية ٦ - ٧ العلق.

(٢) الآية ٩٥.

وخصها بالذكر لأنها الركن القوي في السد والعمدة الأساسية في هيكله ﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾ وارتفع البناء شيئاً فشيئاً حتى أصبح مساوياً في الارتفاع لجانبي الجبلين اللذين أقيم السد بينهما، ثم أشعل النار في الخشب والحطب الذي وضعه بين قطع الحديد، دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿قال انفخوا﴾ ولا بد أن تكون آلات النفخ بعيدة عن موقع السد، فالنار كبيرة وعظيمة لا يستطيع أحد أن يقترب منها، ويدل على قوتها وشدتها قوله عز وجل: ﴿حتى إذا جعله ناراً﴾ لقد أصبح هيكل السد كتلة ملتهبة من النار، ثم قام ذو القرنين فصب النحاس المذاب فوق هذه الكتلة الملتهبة من الحديد والنار ﴿قال آتوني أفرغ عليه قطراً﴾^(١).

ولا يعقل أن يتم مثل هذا العمل الكبير بالوسائل البدائية البسيطة التي كان عليها الناس يومئذ، فمثل هذا المشروع الكبير يحتاج إلى آلات ضخمة ورافعات كبيرة، يبدو أن ذا القرنين استعملها بعد أن هداه الله سبحانه إليها بما آتاه من الأسباب وسخر له من وسائل التمكين، حتى استطاع إنجاز هذا المشروع الكبير الذي وصفه الله عز وجل بقوله: ﴿فما استطاعوا أن يظهره وما استطاعوا له نقباً﴾^(٢) فما تمكن المفسدون أن يعلوا عليه لارتفاعه وملاسته، ولا أن يخرقوه لصلابته وثخانتها، وبعد أن أتم ذو القرنين بناء السد نظر إليه وقال:

(هذا رحمة من ربي)

وتلك هي كلمة المؤمن الشاكر، المعترف بفضل الله عليه، فالفصل لله تعالى أولاً وآخراً، ولا حول ولا قوة إلا بقوة الله العلي القدير، إنه الإخبات والتواضع والتذلل لله والإقرار بفضلته، لا التكبر والتجبر والبغي ورؤية النفس، ﴿قال هذا رحمة من ربي﴾ ومع قوة السدِّ ومثانته فإنه لا يستعصي على قدرة الله، فإذا جاء الوعد الذي قدَّره الله سبحانه لهدمه ﴿فإذا جاء وعد ربي جعله

(١) الآية ٩٦.

(٢) الآية ٩٧.

دكأ، وكان وعد ربي حقاً^(١) إن الجبال الرواسي التي أرساها القوي القادر بقوته وقدرته لا تستعصي على مشيئته سبحانه وقدرته عندما يشاء الله سبحانه إزالتها ونسفها ﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً. فيذرها قاعاً صَفْصَفاً. لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾^(٢).

والمراد من قول ذي القرنين: ﴿هذا رحمة من ربي﴾ بيان أن هذا السد رحمة من الله بالأمم القريبة منه لمنع غارات يأجوج ومأجوج عنهم، ولكن يجب عليهم أن يفهموا أنه مع متانته وصلابته لا يمكن أن يقاوم مشيئة الله القوي القدير، فإن بقاءه إنما هو بفضل الله، ولكن إذا قامت القيامة فلا هذا السد ولا غيره من الجبال الراسيات يمكنها أن تقف لحظة واحدة أمام قدرة الله، بل يدكها جميعاً دكاً في لمح البصر، وهذا تنبيه من ذي القرنين لتلك الأمم على عدم الاغترار بمناعة السد^(٣).

فوعد الله الذي ذكره ذو القرنين في قوله: ﴿فإذا جاء وعد ربي جعله دكاً﴾ هو يوم القيامة، وهو ما ذهب إليه أكثر المفسرين، قال القرطبي: ﴿فإذا جاء وعد ربي جعله دكاً﴾ أي يوم القيامة، وقيل وقت خروجهم، وقال الألوسي: المراد من وقت ذلك يوم القيامة، وقيل: وقت خروج يأجوج ومأجوج، وتُعقَّب بأنه لا يساعد النظم الكريم. وكذلك قال أبو السعود في تفسيره^(٤).

سؤالان هاما

من يأجوج ومأجوج؟

أين يقع سد ذي القرنين؟

وهما سؤالان هاما وكبيران. وقد حاول كثير من المفسرين قديماً وحديثاً الإجابة عليهما.

(١) الآية ٩٨.

(٢) الآية ١٠٥-١٠٧ طه.

(٣) انظر تفسير القاسمي ط ١.

(٤) انظر تفسير القرطبي، وأبي السعود، وروح المعاني.

ولا يسعنا إلا أن نرجع إلى الكلمات القرآنية الكريمة نتدبرها ونتأمل في مدلولات معانيها على ضوء ما ورد في السنة الشريفة حول هذا الموضوع، لعلنا نصل بفضل الله سبحانه وتوفيقه إلى بعض الحقيقة، أو إلى ضوء ينير لنا الطريق، ويوصلنا إلى استكشاف معالم الحقيقة.

وليس الخوض في هذا الموضوع نوعاً من الفضول العقلي أو الترف العلمي، فثمة تحديات كثيرة من أعداء الإسلام حول هذا الموضوع، تستهدف تشكيك ضعاف الإيمان بصدق ما أخبر عنه القرآن الكريم، أو على الأقل تضعف ثقتهم بكلام الله سبحانه، وهناك أمر آخر يستدعي منا أيضاً أن نخوض في هذا الموضوع، وهو أن لسدّ ذي القرنين ويأجوج ومأجوج علاقة وثيقة بالامة المسلمة عموماً وبالعرب من هذه الامة خصوصاً.

إن كثيراً من الفتن التي أصابت المسلمين، ولا زالت تفتك بهم، لها ارتباط بسدّ ذي القرنين وبالقبائل المفسدة، الذين سماهم القرآن الكريم يأجوج ومأجوج، الذين يظهرون في آخر الزمان قبيل قيام الساعة، فقد أخبر النبي ﷺ في عدة أحاديث نبوية شريفة وصحيحة عن ظهور يأجوج ومأجوج مع أشراط وعلامات الساعة الكبرى، وسيأتي بعض هذه الأحاديث.

«ويل للعرب من شر قد اقترب»

والدليل على وجود علاقة بين الفتن التي أصابت الامة المسلمة وبين سدّ ذي القرنين ويأجوج ومأجوج، الحديث الصحيح المتفق عليه في الصحيحين البخاري ومسلم، من حديث أم المؤمنين السيدة زينب رضي الله تعالى عنها قالت: استيقظ رسول الله ﷺ محمراً وجهه وهو يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلّقت بإصبعيه الإبهام والتي تليها، قلت: يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟! قال: نعم إذا كثر الخبث».

والعجيب أن كبار شراح السنة النبوية الشريفة لم يتعرضوا للكلام عن

علاقة ردم يأجوج ومأجوج بالعرب، التي يدل الحديث الشريف على وجودها، وحملوا الشر الذي ذكره النبي ﷺ على الفتن التي أصابت الأمة المسلمة بمقتل الخليفة الراشد عثمان رضي الله تعالى عنه، قال ابن حجر العسقلاني رحمه الله: خص العرب لأنهم كانوا حينئذ معظم من أسلم، والمراد بالشر ما وقع بعده من قتل عثمان، ثم توالى الفتن حتى صارت الأمة بيد الأكلة كما وقع في الحديث الآخر: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»^(١).

والجدير بالذكر أن ابن حجر العسقلاني ظهر في القرن الثامن الهجري أي بعد أن اجتاحت المغول والتتر بلاد المسلمين في القرن السابع الهجري، وخربوا معظم معالم الحضارة الإسلامية حتى وصلوا إلى بغداد فخربوها أيضاً وقتلوا الخليفة العباسي وذبحوا عدداً كبيراً من أهلها وأحرقوا كتبها ومكتباتها.

يأجوج ومأجوج

ولا يعني هذا أن المغول والتتر الذين دمروا كثيراً من معالم الحضارة الإسلامية، هم يأجوج ومأجوج، إذ دلت الأحاديث الشريفة الصحيحة على أن يأجوج ومأجوج يظهرون في آخر الزمان بعد نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض وقتله الدجال، وظهورهم من علامات الساعة الكبرى التي لم يحدث شيء منها حتى الآن، فقد جاء في حديث النُّوَّاس بن سمعان رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعد أن ذكر ظهور الدجال ونزول عيسى عليه السلام من السماء وقتله له يقول:

«ثم يأتيه قوم قد عصمهم الله من الدجال، فيمسح وجوههم ويحدثهم

(١) انظر فتح الباري، والحديث الذي أشار إليه رواه أبو داود وأحمد من حديث ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت».

بدرجاتهم في الجنة، فبينما هم كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرّز عبادي إلى الطور، وبعث الله يأجوج ومأجوج، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويُحصر عيسى نبي الله وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار، فيرغب عيسى نبي الله وأصحابه إلى الله، فيرسل عليهم النغف في رقابهم، فيصبحون فرسى^(١) كموت نفس واحدة، ثم يهبط عيسى نبي الله وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلاّ ملأه زهمهم ونتاجهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل طيراً كأعناق البخت^(٢)، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً لا يُكن^(٣) منه مدر^(٤) ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة^(٥).

وذكر الإمام مسلم في رواية ثانية أن يأجوج ومأجوج، يقولون بعد أن يغلبوا على الأرض: (لقد قتلنا من في الأرض، هَلُمَّ فلنقتل من في السماء، فيرمون بنشابهم، فيردها الله عليهم مخضوبة دماً).

فيأجوج ومأجوج كما تصرّح به الأحاديث الشريفة الصحيحة، لم ينتشروا في الأرض بعد، ولم يغلبوا عليها ويسيطروا عليها سيطرة كاملة، حيث يصل بهم الغرور بالانتصار والغلبة أن يقولوا: (قتلنا من في الأرض هلم فلنقتل من في السماء).

وجموع المغول والتتر الذين اجتاحتهم الشرق العالم الإسلامي حتى وصلوا إلى بغداد سنة ٦٥٤ هـ وخرّبوها وأحرقوها، وإلى حلب ودمشق، ثم نكصوا على أعقابهم مهزومين بعد معركة عين جالوت، ليسوا قطعاً يأجوج

(١) أي موتى.

(٢) أي الإبل.

(٣) أي لا يحمي.

(٤) طين.

(٥) كالمرأة.

ومأجوج، على الرغم من فظاعة التقتيل والتدمير الذي أحدثوه في بلاد المسلمين، حتى التبس أمرهم على بعض العلماء المتأخرين من المفسرين مثل الشيخ أحمد المراغي وجمال الدين القاسمي فزعموا أنهم يأجوج ومأجوج^(١).

ولو أنهم أمعنوا النظر في الأحاديث الشريفة التي ذكرت يأجوج ومأجوج لأدركوا خطأهم فيما ذهبوا إليه.

نعم نستطيع أن نقول: إن المغول والتتار الذين اجتاحتوا مشرق العالم الإسلامي في القرن السابع الهجري جزء صغير من يأجوج ومأجوج ومقدمة لهم، وإن ظهور المغول والتتار في القرن السابع الهجري ظهور جزئي ليأجوج ومأجوج، سوف يتلوه الظهور الكلي قرب قيام الساعة بعد نزول عيسى نبي الله إلى الأرض. كما ورد في الأحاديث الشريفة التي سبق ذكر بعضها.

ويؤكد هذا الذي ذهبت إليه ما مرَّ معنا في حديث النبي ﷺ «ويل للعرب من شر قد اقترب» ولعل في قول النبي ﷺ: «فُتِحَ اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج مثل هذا» وتحليقه بأصبعيه، إشارة منه ﷺ إلى الظهور الجزئي ليأجوج ومأجوج، الذي حدث في القرن السابع الهجري، عندما اجتاحت المغول والتتار مشرق العالم الإسلامي.

بهذا يجتمع شمل الأحاديث الشريفة، وتبدو لنا متكاملة ومنسجمة.

وقد وقعتُ بعد أن توصلت لهذه النتيجة على كلام للعلامة القرطبي رحمه الله في تفسيره، يدل دلالة قوية على صحة ما توصلت إليه، قال رحمه الله: نَعَتَ النبي ﷺ الترك: قومًا وجوههم كالمجان المطرقة^(٢)، وفي رواية

(١) انظر ما كتبه كل من الشيخ أحمد المراغي والشيخ القاسمي في تفسيريهما.
(٢) أي التروس السمكية، يقال طارق النعل إذا صيرها طاقاً فوق طاق، وركب بعضها على بعض، أراد أنهم عراض الوجوه غلاظها. انظر لسان العرب.

يتتعلون الشَّعر (مسلم وأبو داود) ولما علم النبي ﷺ عددهم وكثرة وحدة شوكتهم قال ﷺ:

«اتركوا الترك ما تركوكم»^(١) وقد خرج منهم في هذا الوقت أمم لا يحصيهم إلا الله تعالى، ولا يردهم عن المسلمين إلا الله تعالى، حتى كأنهم يأجوج ومأجوج أو مقدمتهم^(٢).

والترك الذين ذكر القرطبي أنهم مقدمة ليأجوج ومأجوج هم التتار، وبعض العلماء يطلقون عليهم اسم الترك، ولعلك لاحظت أن القرطبي يذهب إلى هذا الرأي بتردد وحذر، لكن ما ورد في الأحاديث الشريفة من وصف يأجوج ومأجوج ومطابقته لصفات المغول والتتار، يؤكد رأي القرطبي دون تردد وحذر، فالوجوه المستديرة الغليظة التي كأنها المجان المطرقة التي ذكرها القرطبي جاءت صريحة واضحة في حديث نبوي صحيح وصف فيه النبي ﷺ يأجوج ومأجوج فقال: «إنكم تقولون لا عدو لكم، وإنكم لا تزالون تقاتلون عدوًّا، حتى يأتي يأجوج ومأجوج، عراض الوجوه، صغار العيون، صهب الشعاف، من كل حذب ينسلون، وجوههم المجان المطرقة»^(٣).

هل يأجوج ومأجوج محصورون وراء السد؟

وقد يعترض بعضهم على ما سبق بيانه من كون المغول والتتار من يأجوج ومأجوج ومقدمة لهم، بأن يأجوج ومأجوج محصورون وراء السد، وسيظلون محصورين وراء السد حتى قرب قيام الساعة، حيث ينهدم

(١) رواه الطبراني في الكبير بإسناد ضعيف، ورواه بالأوسط والصغير بإسناد حسن من حديث ابن مسعود بلفظ (اتركوا الترك ما تركوكم، فإن أول من يسلب أمتي ملكهم وما حولهم بنو قنطوراء) وقوله (أمتي) أي أمة النسب وهم العرب، لا أمة الدعوة. انظر فيض القدير للمناوي.

(٢) انظر تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن.

(٣) رواه الإمام أحمد في المسند، واستشهد به ابن كثير في تفسير سورة الأنبياء. ومعنى (صهب الشعاف): حمرة في ظاهر شعورهم وسواد في الباطن، والشعاف: أعلى الشعر. انظر لسان العرب.

ويخرجون من ورائه وينتشرون في الأرض، كما سبق ذكره في الأحاديث النبوية الشريفة التي تحدثت عن علامات الساعة الكبرى.

وأقول رداً لهذا الاعتراض: إن السد الذي بناه ذو القرنين كان لحماية البلاد الواقعة قريباً منه من شر يأجوج ومأجوج وفسادهم من الجهة التي بني فيها، وليس لحصرهم حصراً كلياً من جميع الجهات، فيصبحوا معزولين في بلادهم عزلاً تاماً، لا يستطيعون الخروج منها من أي جهة، فلا يتصلون بأحد ولا يتصل بهم أحد. فسد ذي القرنين عزلهم من جهة واحدة ولم يعزلهم من جميع الجهات.

والقول بأنهم محصورون وراء السد من جميع الجهات ولا يزالون كذلك، يؤدي إلى القول بأن رسالة الإسلام لم تبلغهم وحجة الله عليهم بدعوتهم إلى الإيمان لم تقم عليهم، مع أنهم أكثر الناس، وهم محاسبون يوم القيامة ومسؤولون عن كفرهم وعنادهم وفسادهم في الأرض ومعذبون في نار جهنم، قال رسول الله ﷺ:

«إن الله تعالى يقول: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فيقول: ابعث بعث النار، فيقول: وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة، فحينئذ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فقال: إن فيكم أمتين ما كانتا من شيء إلا كثرتا: يأجوج ومأجوج»^(١).

فيأجوج ومأجوج أكثر الأمم عدداً. فلا يعقل أن يظلوا معزولين إلى قرب قيام الساعة دون أن تبلغهم دعوة الإسلام العامة الشاملة لكل الناس، فمعنى هذا أن رسالة الإسلام لم تصل إلى أكثر الناس. والقول بأن رسول الله ﷺ بلغهم دعوة الإسلام ليلة الإسراء، لا دليل على صحته.

كما أن القول بأنهم معزولون وراء السد عزلاً كاملاً إلى وقت ظهورهم

(١) متفق عليه.

قرب قيام الساعة يتعارض مع الحديث الشريف الصحيح الذي سبق ذكره «ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا».

(فتحت يأجوج ومأجوج)

ويستدل أصحاب هذا القول بالآية الكريمة في سورة الأنبياء: ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون﴾^(١) فقلوه: ﴿فتحت يأجوج ومأجوج﴾ يدل على أنهم كانوا محصورين قبل أن يفتح لهم بانهدام السد الذي حصرهم، ويكون هذا قبل قيام الساعة لأنه سبحانه قال بعد ذلك: ﴿واقرب الوعد الحق، فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا: يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا، بل كنا ظالمين﴾^(٢).

لكن هذا المعنى لا يُسلم لهم، لأن الفتح يستعمل أيضاً في معنى الظهور والتمكن والغلبة، واستعماله بهذا المعنى شائع حتى في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾^(٣) وقال أيضاً: ﴿فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده﴾^(٤).

ويتعين علينا أن نفسر الآية الكريمة ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج﴾ بهذا المعنى، أي حتى إذا قَدَّرَ الله ظهور يأجوج ومأجوج في الأرض وغلبتهم عليها وتمكنهم فيها، ويتعين علينا المصير إلى هذا المعنى في فهم الآية لتنسجم مع ما ذكرته من الأحاديث النبوية الشريفة فلا يوجد أدنى تعارض بين الآيات الكريمة وبين الأحاديث النبوية الشريفة، لأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

(١) الآية ٩٦ الأنبياء.

(٢) الآية ٩٧ الأنبياء.

(٣) الآية ١ الفتح.

(٤) الآية ٥٢ المائدة.

وعلى هذا ليس في الآية ما يدل على أن يأجوج ومأجوج محصورون وراء السد إلى قرب قيام الساعة.

تحقيق في حديث

بقي أخيراً أن نذكر الحديث الذي يحتج به الفائلون بأن يأجوج ومأجوج لا يزالون محصورين وراء السد ومعزولين عن الناس، وهو حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده، والترمذي وابن ماجه، من طريق أبي هريرة، رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال:

«إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً، فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله، فيستثنى، فيعودون إليه كهيتته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشقون المياه، ويتحصن الناس منهم في حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، فترجع وعليها كهياة الدم فيقولون: قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نغفاً في رقابهم فيقتلهم بها، قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، إن دواب الأرض لتسمن وتشكر شكراً من لحومهم ودمائهم».

إن عدة تساؤلات تثور في النفس عند قراءة هذا الحديث، كيف استمر هؤلاء القوم يحفرون في السد آلاف السنين ولم يتسرب إليهم شيء من الملل أو اليأس من نقب السد؟! ولماذا يحفرون في الليل فقط؟ ثم كيف يتمكنون أخيراً من حفره والله سبحانه أخبر في كتابه العزيز أنهم لن يتمكنوا من نقبه ﴿فما استطاعوا أن يظهره وما استطاعوا له نقباً﴾ وكثيراً ما يعبر القرآن الكريم عن أمور في المستقبل بصيغة الماضي تأكيداً لمضمونها.

لعل هذه التساؤلات هي التي حملت ابن كثير رحمه أن يقول: (إسناده

جيد ولكن في متنه نكارة، لأن ظاهر الآية أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا نقبه^(١)، ويعارضه أيضاً الحديث المتفق على صحته الذي سبق ذكره وهو حديث السيدة زينب «ويلٌ للعرب من شرٍ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج» الحديث.

وذهب ابن كثير رحمه الله إلى القول بأن هذا الحديث يمكن أن يكون مما روي عن كعب الأحبار، وهو من يهود اليمن، أسلم بعد موت النبي ﷺ، وسكن المدينة المنورة، وروى عنه بعض السلف كثيراً من الإسرائيليات، قال ابن كثير: لكن هذا قد روي عن كعب الأحبار، أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل، فيقولون غداً نفتحه، فيأتون من الغد وقد عاد كما كان... وهكذا حتى يُلهموا أن يقولوا: إن شاء الله، فيصبحون وهو كما فارقه فيفتحونه.

وهذا متجه، ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب، فإنه كثيراً ما كان يجالسه ويحدثه، فحدث به أبو هريرة، فتوهم بعض الرواة عنه أنه مرفوع فرفعه، والله أعلم^(٢).

موقع السد

ولنا بعد أن اتضحت بعض الحقائق عن يأجوج ومأجوج أن نتساءل عن موقع سد ذي القرنين؟.

فلنتأمل مصوراً طبيعياً للبلاد الممتدة من أواسط آسيا إلى أقصى شمالها الشرقي، حيث يلتقي المحيطان الهادي والمتجمد الشمالي، هذه البلاد هي المواطن الأصلية للمغول والتتار والترك، أو القبائل التي تسمى بالاستبس، هذه البلاد تشبه، كما يقول مؤلف كتاب المغول، إسكندناوة، في كونها مستودعاً للأمم، ومنها خرجت غارات المتبربرين^(٣).

(١) انظر تفسير ابن كثير.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) كتاب المغول للبارز الأعرجي، طبع دار النهضة العربية.

والاستبس أقوام بدوية كانت تمارس ضغطاً على الإمبرطوريات
المتمدنة الواقعة إلى الجنوب والغرب منها؛ وهذا الضغط تطور من اعتداءات
انتقامية إلى غارات للفتح والتوسع^(١).

وبناء السدود حول بلاد هذه القبائل المتوحشة لدفع شرهم، كان أمراً
معروفاً في البلاد المتاخمة لهم. ولم تكن فكرة بناء السد جديدة على أهل
البلاد المتاخمة لهم عندما قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في
الأرض، فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً؟ إذ قام
الصينيون القدماء الذين يسكنون إلى الجنوب من بلاد المغول والتتار، ببناء
سور الصين العظيم لحماية بلادهم من هجمات هذه القبائل البدوية
المتوحشة.

ومع ذلك لم تسلم الصين من شرهم، إذ تمكنوا من اجتياز سور الصين
من ناحية الغرب، ودخلوا الصين واستولوا على الحكم فيها بعد أن استأصلوا
أسرة كين التي كانت تحكم شمال الصين^(٢).

إذن فلشعوب الصين صلة نسب قوية وكبيرة بالمغول والتتار، أو ما
يسمى شعوب الاستبس والتنجور والترك^(٣).

والمأمل للتضاريس والجبال في هذه البلاد الشاسعة يلاحظ أنها شبه
معزولة من جهة الجنوب الغربي بكتل هائلة من السلاسل الجبلية الشاهقة،
والتي تعد أكبر وأعلى الكتل الجبلية في الأرض، فسلاسل جبال تيان شان
وألثاي في الشمال الغربي تمتد إلى الجنوب حيث يواجهها جبال الهملايا،
لتطوق فيما بينها بلاد منغوليا وتركستان وشمال آسيا وتفرقها عن وسط آسيا
والهند.

وهذا يجعلنا نعتقد احتمال وجود سد ذي القرنين بين سلاسل هذه

(١) المرجع نفسه.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه.

الجبـال، وقد أكـد هـذا الاحتمـال ما ذكره المـراغي صـاحب التفسير عن مجلـة المقتطف فـقال: يـأجوج هـم التـتار، ومـأجوج هـم المـغول، يـسكنون الجـزء الشـمالي من آسـيا، وتمتد بـلادهم من التبت والصين إلى المتجمد الشمالي، وغرباً إلى تركستان، وقد ذكر مؤرخو العرب والإفرنج أن هذه الأمم كانت تغير في أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها، فكثيراً ما أفسدوا في الأرض ودمروا كثيراً من الأمم، ومنهم من ذهب إلى أوروبا في العهد القديم كالتيحيت والسمريان والهون، وكثيراً ما أغاروا على بلاد الصين وآسيا الغربية....

وقد كشفوا في القرن الحاضر آثار سدّ قديم بـجبال قوقاز، ويسمى باب الأبواب، أو دربنت، وهو غير السد الشهير الذي بناه ذو القرنين، فإن هذا وراء نهر جيحون في عمالة بلخ، واسمه باب الحديد. بمقربة من مدينة ترمذ، وقد اجتازه تيمور لنك بجيشه، ومر به أيضاً شاه رخ، وكان في بطانته العالم الألماني سيلدبرجر، وذكر السد في كتابه، وكان ذلك في أوائل القرن الخامس عشر، وكذلك ذكره المؤرخ الأسباني كابنـجو في رحلته سنة ١٤٠٣ م. وكان رسولاً من ملك كستيل (قشتالة) بالأندلس إلى تيمورلنك، وقال: إن سد باب الحديد على الطريق الموصل بين سمرقند والهند. انتهى ملخصاً من مقتطف سنة ١٨٨٨، وبذلك تعلم أن السد موجود فعلاً^(١) والله سبحانه أعلم.

(١) انظر تفسير المراغي.

التعقيبُ للأنخير

ويأتي التعقيب في آخر سورة الكهف منسجماً مع موضوعها الأساسي، ومؤكداً ارتباط آيات السورة ببعضها ارتباطاً محكماً، وشدة انسجامها واتفاقها مع موضوعها.

فبعد أن ختمت الآيات حديثها عن ذي القرنين بحكاية قوله: ﴿قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء، وكان وعد ربي حقاً﴾ ذكرت بعض مشاهد يوم القيامة، يوم الوعد الحق، يوم يختلط الإنس والجن ويموج بعضهم ببعض بعد أن ينفخ في الصور نفخة البعث من القبور وجمع الخلائق ليوم النشور.

﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض، ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا﴾^(١) يوم تُعرض جهنم على الكافرين ليروا ما ينتظرهم فيها من أهوال العذاب وأنواع النكال، فيزداد حزنهم وهمهم ﴿وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً﴾^(٢) وقد بين النبي ﷺ كيفية هذا العرض فقال: «يؤتى بجهنم تُقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك»^(٣).

أعين وقلوب

ووصف الله تعالى الكافرين الذين تُعرض جهنم عليهم، فقال: ﴿الذين

(١) الآية ٩٩.

(٢) الآية ١٠٠.

(٣) صحيح مسلم.

كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سماعاً^(١) أي تغافلوا وتعاموا وتصامموا عن قبول الهدى واتباع الحق، بسبب ما شغلوا به من أسباب الفتن من مال وجاه وأولاد وعلم وحكم وسلطان وشيطان، مما سبق ذكره في آيات سورة الكهف.

﴿كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى﴾ بينما مر معنا قبل ذلك آية كريمة توافقها في المعنى، إلا أنها ذكرت القلوب: ﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه﴾ ولعل سبب ذكر الأعين هنا انكشاف المغيبات وظهور المستورات ووضوح المرئيات، هذه جهنم أمامهم تُعرض عليهم بما فيها من أنواع العذاب والنكال، يرونها بأعينهم.

أما الآية الثانية فقد جاءت في مجال التذكير والدعوة إلى الإيمان، فالكفار لا يزالون في الدنيا، ولا تزال الحقائق مستورة عن أعينهم، وإن كانت ظاهرة بأدلتها القاطعة وبراهينها الساطعة، والقلب محل إدراك البراهين وموضع التصديق بالآيات، ولكن قلوبهم حجبت عن رؤية الحقائق والتصديق بالآيات بما غلب عليها من أسباب الفتن وشواغلها ﴿إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً﴾.

تهكم وإنكار

وماذا أعدَّ الكافرون لهذا اليوم؟ وأين الذين اتخذوهم من دون الله تعالى أولياء وأنصاراً؟ ﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء﴾.

إنَّ ما في هذا الاستفهام والتساؤل من مرارة التهكم والإنكار لينسجم كل الانسجام مع ما مر معنا في قوله سبحانه وهو يستنكر اتخاذ بعض الناس الشيطان ولياً لهم من دون الله تعالى: ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو، بئس للظالمين بدلاً﴾.

(١) الآية ١٠١.

وتزداد مرارة التهكم والإنكار في قوله تعالى بعد ذلك: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾^(١) لأن النزول هو ما يقدم للضيف من طعام وغيره، فكيف تكون جهنم نزلاً لهم؟! وقد سبق أن مر معنا أيضاً في سورة الكهف قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ، فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ، وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾^(٢).

ثم تلتفت الآيات تخاطب النبي ﷺ تنوياً بذكره وتشريفاً لقدره عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا. الَّذِينَ ضَلُّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾^(٣) كانوا مفتونين بأعمالهم ومعجبين بها، فَسَعَوْا في تحصيلها، وكابدوا في تحقيقها، فضاع سعيهم، وبطل عملهم، عملوا وتعبوا وظمئوا من أجل سراب خادع ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ، يَحْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا، وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوفَاءَ حِسَابِهِ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾^(٤) فخسارتهم أعظم خسارة، وندامتهم أشد ندامة.

وبين الله تعالى سبب بطلان عملهم وسقوط سعيهم فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ جحدوا آيات الله وبراهينه التي جعلها دلائل وحدانيته، وبراهين صدق أنبيائه ورسله، وكذبوا بيوم القيامة ولهذا ﴿فَلَا نَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾^(٥)، نذري بهم ونحتقرهم، ولا نجعل لهم مقداراً ولا اعتباراً.

قال رسول الله ﷺ: «ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة» اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا نَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾^(٦).

(١) الآية ١٠٢.

(٢) الآية ٥٢.

(٣) الآية ١٠٣ - ١٠٤.

(٤) الآية ٣٩ النور.

(٥) الآية ١٠٥.

(٦) البخاري في صحيحه.

تأمل أخي القارئ كيف جاءت الآية منسجمة مع قصة المتكبرين من مشركي قريش، المفتونين بمالهم وجاههم، والذين جاءوا إلى رسول الله ﷺ وطلبوا منه أن يبعد عن مجلسه فقراء المسلمين لأنهم يتأذون برؤيتهم، التي سبق ذكرها في موضوع: فتنة الغنى والفقر، ومنسجمة أيضاً مع قصة صاحب الجنتين المفتون بماله وأولاده وخدمه وحشمه حتى قال: ﴿ولئن رُدّدت إلى ربي لأجدنَّ خيراً منها منقلباً﴾.

ما أعدلك ربي، تقدّست ذاتك وتسامت صفاتك، في قولك الكريم: ﴿ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزواً﴾^(١).

وما أجمل قول الحق بعد ذلك، وما أعذب موقعه على قلب المؤمن: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نُزلاً﴾^(٢) تلك هي الضيافة الكريمة الحقّة التي يكرم الله تعالى بها عباده المؤمنين الصالحين، وذلك هو المنزل الطيب الرفيع، جنات الفردوس أوسط المنازل وأرفعها وأكرمها. قال ﷺ: «إذا سألتكم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تفجّر أنهار الجنة»^(٣).

﴿خالدين فيها لا يغيّون عنها حولاً﴾^(٤) تعلّقت بها قلوبهم ونفوسهم، فلا يختارون غيرها ولا يحبون سواها، ولا يملون فيها، ولا يسأمون منها، مع طول المكث فيها والخلود. كما قال الشاعر:

فحلّت سويدا القلب لا أنا باغياً سواها ولا عن حبها أتحوّل

كلمات الله تعالى

وتلتفت الآيات الكريمات مرة ثانية إلى النبي ﷺ تخاطبه لأنه يبلغ

(١) الآية ١٠٦.

(٢) الآية ١٠٧.

(٣) أخرجه في الصحيحين.

(٤) الآية ١٠٨.

وحي الله تعالى وبيّنه للناس: ﴿قل لو كان البحر مدداً لكلمات ربي لَفَـدَّ البحر قبل أن تنفدَ كلماتُ ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾ (١) أين المفتونون بعلومهم، والمغرورون بمواهبهم وإمكاناتهم، إن أجمل شيء أمام هذه الآية أن نمسك أقلامنا وألستنا فلا نكتب ولا نتكلم، ونترك عقولنا وأفكارنا وقلوبنا حرة طليقة تحلق فوق صفحات البحار الممتدة امتداد الآفاق، تكلّ العقول، وتنقطع الأفكار، وتمتلىء القلوب دون أن تحيط بمداد الكلمات الربانية ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله، إن الله عزيز حكيم﴾ (٢) فما قدروا الله حق قدره، ولا يستطيع أحد أن يقدر قدر كلمات الله تعالى وعلومه وحكمه. إن ربنا عز وجل كما يقول وفوق ما نقول، سبحانه لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

وتختتم السورة بخطاب ثالث للنبي ﷺ: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾ فهو ﷺ بشر كسائر البشر، وإنما تميز عنهم بما أوحى الله تعالى إليه ﴿يوحى إليّ أنما ألهمكم إله واحد﴾ وطريق الوصول إلى رضوانه ورحمته ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ (٣) هذا هو سبيل النجاة وكهف السلامة. الإيمان بالله سبحانه وحده، والعمل الصالح الخالص لله على هدي شريعة رسول الله ﷺ.

(١) الآية ١٠٩.

(٢) الآية ٢٧ لقمان.

(٣) الآية ١١٠.

مراجع الكتاب

- القرآن الكريم .
- كتب الحديث النبوي الشريف المعتمدة .
- من كتب التفسير :
 - ١ - تفسير ابن كثير .
 - ٢ - روح المعاني للعلامة الألوسي البغدادي .
 - ٣ - تفسير البيضاوي وحاشية الشهاب عليه .
 - ٤ - التفسير الكبير للفخر الرازي .
 - ٥ - تفسير العلامة أبي السعود .
 - ٦ - تفسير الخازن (لباب التأويل) .
 - ٧ - تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) .
 - ٨ - أضواء البيان للشنقيطي .
 - ٩ - في ظلال القرآن لسيد قطب .
 - ١٠ - التفسير الحديث لدروزة .
 - ١١ - تفسير المراغي .
 - ١٢ - محاسن التأويل للقاسمي .
 - ١٣ - الفتوحات الإلهية (حاشية الجمل على الجلالين) .
- كتب مختلفة :
 - ١ - فتح الباري شرح صحيح البخاري .
 - ٢ - لسان العرب لابن منظور .
 - ٣ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر .

- ٤ - كتاب المغول، للباذ العُرَيْني، طبع دار النهضة العربية.
- ٥ - فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر.
- ٦ - فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي.
- ٧ - شرح الشفا، للملا علي القاري.
- ٨ - العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد، للمؤلف.
- ٩ - ردود على أباطيل، للشيخ محمد الحامد رحمه الله.
- ١٠ - دائرة معارف القرن العشرين، لفريد وجدي.
- ١١ - دائرة المعارف، لبطرس البستاني.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الفصل الأول: مقدمة في الفتن	٧
تعريف الفتن	٩
منشأ الفتن	١٣
أسباب السلامة من الفتن	١٥
باب الفتن	٢١
خير الفتن يتحدث	٢٣
هلاك المسلمين بالفتن فيما بينهم	٢٥
فتنة الدجال	٢٧
سورة الكهف	٣١
فضائل سورة الكهف	٣٣
موضوع سورة الكهف	٣٥
الحياة في الدنيا ابتلاء واختبار	٣٦
كهف السلامة	٣٧
سبب نزول السورة	٤١
الفصل الثاني: أصحاب الكهف	٤٣
القصة الأولى: قصة أصحاب الكهف	٤٥

٤٥	مصادر القصة
٤٦	فوائد وحكم
٤٧	الآيات السينات
٤٨	صفات أصحاب الكهف
٤٩	ربط الله على قلوبهم
٥١	الخروج إلى الكهف
٥٣	منطق المغرورين
٥٣	في داخل الكهف
٥٤	مدة نومهم في الكهف
٥٦	الحكم لله وحده
٥٧	من آيات الله سبحانه
٥٨	الحارس الأمين
٦٠	البعث من النوم
٦٠	محاورة بعد النوم
٦١	النقود الفضية
٦٢	إظهار الحقيقة
٦٣	مسجد على الكهف
٦٤	تأديب وتعليم
٦٦	تعقب
٦٧	الفصل الثالث: قصة الغني والفقير
٦٩	القصة الثانية: قصة الغني والفقير
٦٩	فتنة الغني وفتنة الفقر
٧٠	الغفلة عن ذكر الله
٧١	القصة الثانية: رجلان وجنتان
٧٢	الجنتان
٧٣	المحاورة

٧٤	عزة الإيمان
٧٥	حسرة وندم
٧٦	التحذير من الاغترار بالحياة الدنيا
٧٧	زينة الحياة الدنيا
٧٨	الباقيات الصالحات
٧٨	مشاهد من يوم القيامة
٨٠	فتنة الشيطان
٨٢	سبيل النجاة
٨٣	أمثال القرآن الكريم
٨٤	أسباب الضلال
٨٧	الفصل الرابع : قصة موسى عليه السلام والرجل الصالح
٨٩	القصة الثالثة : قصة موسى عليه السلام والرجل الصالح
٨٩	موقع القصة في سورة الكهف
٩٠	فتنة العلم
٩١	القصة في كتب السنة النبوية الشريفة
٩٤	رحلة العجائب - مجمع البحرين
٩٥	الحوت العجيب
٩٦	العبد الصالح
٩٨	موسى أفضل من الخضر
٩٩	أدب ولطف
١٠١	الجولة الأولى
١٠١	الجولة الثانية
١٠٢	الجولة الثالثة
١٠٣	كشف الأسرار
١٠٥	تعقيب
١٠٦	العمل بالإلهام غير جائز

١١١	الفصل الخامس : قصة ذي القرنين
١١٣	القصة الرابعة : قصة ذي القرنين
١١٣	فتنة الحكم
١١٤	ذو القرنين ليس ملكاً من ملوك الفرس
١١٦	ولا الإسكندر المقدوني اليوناني
١١٨	هل ذو القرنين أحد ملوك اليمن الأولين؟
١٢٠	السائلون عن ذي القرنين
١٢١	التمكين والأسباب
١٢٢	الرحلة الأولى إلى مغرب الشمس
١٢٣	الرحلة الثانية إلى مطلع الشمس
١٢٥	الرحلة الثالثة إلى ما بين السدين
١٢٦	ما آتاني ربي خير
١٢٧	فأعينوني بقوة
١٢٧	بناء السد
١٢٨	هذا رحمة من ربي
١٢٩	سؤالان هامين
١٣٠	ويل للعرب من شر قد اقترب
١٣١	يأجوج ومأجوج
١٣٤	هل يأجوج ومأجوج محصورون وراء السد؟
١٣٦	(فتحت يأجوج ومأجوج)
١٣٧	تحقيق في حديث
١٣٨	موقع السد
١٤١	التعقيب الأخير
١٤١	أعين وقلوب
١٤٢	تهكم وإنكار
١٤٤	كلمات الله تعالى
١٤٧	مراجع الكتاب